الحِجَاج وتوجيه الخطاب

مفهومه ومجالاته وتطبيقات في خطب ابن نباته

الدكتور

باسم خيري خضير





الحِجَاج وتوجيه الخطاب

مفهومُه ومجالاته وتطبيقاتٌ في خطب ابن نباتة

الدكتور

باسم خيري خضير

الطبعة الأولى

2019م – 1440هـ



دار صفاء للنشر والتوزيع - عمان

الفهرس

الفصل الأول

آليات الحجاج الفلسفية

الفصل الثاني

الآليات البلاغية الحجاجية في خطب ابن نباتة

الفصل الثالث

الآليات التداولية في التحليل الحجاجي في خطب ابن نباتة

المقدمة

شكل الخطاب محور اهتمام الدارسين، من المتقدمين والمحدثين، فاهتموا به بوصفه حدثا تبليغيا، يهدف إلى الوصول إلى المخاطب، والتأثير فيه بوسائل وأدوات شتى، ومن ثم إقناعه بفكرة المرسل، ويعتمد في ذلك التأثير على استراتيجيات تقارب العقل والمنطق والعاطفة، فتميل القلب والعقل والضمير، وتفعل التأثير والإقناع والاستمالة، بدافع تبني رأي ما أو الاستجابة لطلب معين، أو لتدعيم موقف ما ؛ لذلك توجه الدارسون في سنين قليلة خلت إلى الاهتمام بتلك الآليات التي استعملها المخاطب في التأثير على المتلقي، وفحصها، وتحليلها، والكشف عن مواطن القوة والضعف فيها، البحث في الطرائق والآليات التي توفرها اللغة والمنطق والفلسفة وعلم النفس والاجتماع للتأثير على المتلقي، فكانت دراسة اللغة ليست بمعزل عن تلك العلوم، وكان التوجه لدراسة الخطاب بصورة عامة بكل ما يحويه من أبعاد اللغة اللسانية وغير اللسانية.

وكان نتيجة لهذا التوجه أن ازداد الاهتمام بدراسة تلك الطرق الإقناعية، التي مثلتها نظرية الحجاج، ودورها الكبير في توجيه خطابات المتكلمين، وحصر وجهات الخطاب والابتعاد عن تعدد الاحتمالات مما يسبب اللبس والتعمية. ركز الحجاج على الطرائق والأساليب التي يتبناها الباث في توجيه المتلقي، وإقناعه بالموضوع المراد إيصاله إليه، ومن ثم تبنيه لذلك الموضوع تبنيا تاما، فتعددت الأساليب وتنوعت الطرائق، وتداخلت العلوم ؛ وهذا ما يفسر لنا تعدد نظريات الحجاج وتوسعها، فكلٌ ينهل من مرجعية معرفية مختلفة، وكلٌ يبغي الوصول إلى غاية واحدة، وأقصد بها إقناع المتكلم، وتعددت التوجهات والدراسات التي تحاول المزج بين نظريات الحجاج والخروج منها بنظرية موحدة لتحليل الخطاب الحجاجي والكشف عن دوره في توحيد مسارات الحدث الخطابي،وهذا مرتكز

بحثنا، إذ نحاول الخروج بنظرية موحدة لتحليل الخطاب الحجاجي،والكشف عن الدور الذي تلعبه مجالات الحجاج وآلياته في توجيه الخطاب.

وكان لا بد لنا من تطبيق تلك النظريات وذلك التوجه على أنموذج خطابي، فكانت الخطابة، التي تعد من أعلى الأنواع الأدبية حجاجيا ؛ لأن غاية الخطابة منصبة على الإقناع، واخترت خطب ابن نباتة (عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل ابن نباتة) الأستاذ البارع البليغ الخطيب أبي يحيى الحذاقي بضم الحاء، وحذاقة بطن من قضاعة، الفارقي، الذي كان يحفظ نهج البلاغة وعامة ألفاظه وخطبه من معانيه وَكَانَ فَصِيْحاً، مُفَوَّهاً، بَدِيْعَ المَعَانِي، جَزْلَ العِبَارَةِ، رُزِقَ سَعَادَةً تَامَّةً فِي خُطَبِهِ.وَكَانَ فِيْهِ خَيْرٌ وَصلاَحٌ، وكان من (ميافارقين) . ولي خطابة حلب لسيف الدولة، و بها اجتمع بالمتنبي وكان رجلاً صالحاً مولده سنة خمس وثلاثين وثلاث مائة وتوفي سنة أربع وسبعين وثلاث مائة، وقيل مات قبل السبعين وثلاث مائة وعمر دون الأربعين وتوفي بـ(ميافارقين)[1].

ابتدأ البحث بتمهيد عرضت فيه لتاريخ أهم نظريات الحجاج (بصورة موجزة) فعرضت لجذور النظرية في المقولات الغربية القديمة، ولا سيما عند السفسطائيين، ومن ثم أفلاطون وأرسطو، وركزت على اختلاف مفهوم الخطابة بين السفسطائيين وأفلاطون، وكذلك تفريق أرسطو بين الجدل والخطابة، ثم انتقلت لتسليط الضوء على أهم النظريات الحجاجية في الفكر الغربي الحديث، ولاسيما نظرية (بيرلمان وتيتكا) في كتابيهما (رسالة في الحجاج) وكذلك نظرية (ديكرو وأنسكومبر) اللذين عرضا لنظريتهما في الحجاج عام 1983 في كتاب (الحجاج في اللغة) ونظرية المساءلة لمايير. ثم انتقلت لتجليات نظرية الحجاج في الفكر العربي القديم ولاسيما عند علماء ثلاثة، رأيت أنهم يمثلون ملامح النظرية في الفكر العربي القديم، وأقصد

---

(1) ينظر سير أعلام النبلاء للذهبي 31/ 376.

بهم (الجاحظ، وابن وهب، والسكاكي) ثم انتقلت إلى التعريف بأهم الباحثين العرب المحدثين في الحجاج، ولاسيما (طه عبد الرحمن وعبد الله صولة ومحمد العمري) وختمت التمهيد بالتعريف بمصطلح الخطاب.واخترت منهجا في تحليل الخطاب الحجاجي يقسم الحجاج من حيث المجالات على ثلاثة أقسام (فلسفي وبلاغي وتداولي) ومن ثم عرضت للتعريف بتلك المجالات وأهم آلياتها وتطبيقها على خطب ابن نباتة.

جاء الفصل الأول لدراسة الحجاج الفلسفي في خطب ابن نباتة، فقُسم على مبحثين تناولت في الأول عرضا لأهم المنطلقات الفلسفية في تحليل الحجاج، ولاسيما نظرية بيرلمان، وعرضت لمنطلقات الحجاج التي تشمل الوقائع والحقائق والافتراضات والقيم والهرميات والمواضع ، ومن ثم عرض التقنيات الحجاجية، التي تمثل مجموع الحجج المستعملة في هذا النوع. ثم جاء المبحث الثاني في تطبيق لمجالات الحجاج الفلسفي على خطب ابن نباتة.

وجاء الفصل الثاني للبحث في الآليات البلاغية في التحليل الحجاجي، وقسمته على أربعة أقسام تناول كل قسم عرضا وتحليلا ورؤية فنية لمبحث بلاغي ثم تطبيقه على خطب ابن نباتة، فجاء القسم الأول للاستعارة والثاني للتمثيل والثالث للكناية والرابع للبديع.

وجاء الفصل الثالث ليتناول الآليات التداولية في التحليل الحجاجي في خطب ابن نباتة وقسمته على مبحثين، تناول الأول عرضا لأهم الآليات التداولية في التحليل الحجاجي ولاسيما نظرية أفعال الكلام والاقتضاء والاستلزام التخاطبيين والسلم الحجاجي وأدواته من الروابط الحجاجية، وتناول المبحث الثاني تطبيقا للآليات التداولية في التحليل الحجاجي في خطب ابن نباتة.

ثم ختمت البحث بخاتمة عرضت فيها لأهم النتائج التي توصلت إليها ثم قائمة بمظان البحث.

وبعد... فأنا لا أدعي الكمال في غاية الوصول، ولكنها أوراق ضمن مشروع تبنيته في تحليل الخطاب وقد طرح ثمارا كان هذا البحث أحدها أرجو وآمل أن أنال توفيق الله (عزَّ وجلَّ) ورضا القارئين إنه على ما شاء قدير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنام محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

التمهيد

في تاريخ الحجاج

التمهيد

في تاريخ الحجاج

توطئة:

شكل الخطاب موضوع اهتمام الدارسين، وشُغلت به الثقافات الغربية القديمة والحديثة، فاستند في الثقافة القديمة منها إلى قواعد فلسفية ومنطقية ؛ مما مهد لتنامي الاهتمام بالخطاب الفلسفي اليوناني والإغريقي على صعيد الدرس والتصنيف، أما في الثقافة العربية فقد اهتم العلماء بدراسة الخطاب ؛ نتيجة اهتمامهم بالخطاب القرآني، وتشعبت الدراسات وتنوعت المناهج، كلٌ يحاول الوصول إلى حقيقة منشودة، أرقت مضاجع الدرس بمختلف الاتجاهات، حقيقة الوصول إلى معنى النصوص، وكان لابد من دراسة الآليات التي استعملها الباث في إقناع المخاطب بقوله، وتنوعت المصطلحات التي تعبر عن هذا الاتجاه، فسميت تارة بالإقناع وأخرى بالجدل وثالثة بالمناظرة ورابعة بالحجاج.

لقد شكل الحجاج مشتركا معرفيا بين كثير من العلوم في العصر الحديث تتجاذبه كلٌ حسب المنظور والأدوات التي تعالجه فيها، وبات من أهم العلوم الإنسانية، ولاسيما في العقود الأربعة الأخيرة. وعلى الرغم من أنه مثل – منذ بداية الحضارة اليونانية والرومانية – موضوعا للبحث، إلا أنه مر بانكسارات وتطورات عديدة، وكان الاهتمام به في إطار أشمل يمثل الاهتمام بالتواصل، إذ ينبثق الاهتمام بالحجة من الاهتمام بما يتعلق بالرسالة وطريقة نقلها وإيصالها[1] ويمكن لنا تتبع تطور نظرية الحجاج عبر مراحل تاريخية مختلفة وصولا إلى العصر الحديث :

---

(1) ينظر تاريخ نظريات الحجاج، فيليب بروتون، جيل جوتيه، ترجمة محمد صالح الغامدي/ 13.

أولا: الحجاج في المقولات الغربية القديمة :

1. الحجاج عند السفسطائيين :

من الصعوبة بمكان تحديد المدة الزمنية التي ظهر فيها تيار الفكر السفسطائي، لكن يمكن لنا أن نحدد القرن الخامس قبل الميلاد زمانا لظهور هذا التيار في أثينا، هذا إذا عرفنا أن الاشتقاق اللغوي للكلمة جاء من (سوفيستاس) التي تعني الحكيم، أو الرجل ذو الخبر العالية في القيادة، والكفاءة المتميزة[1]. فضياع أغلب كتاباتهم والشهادات التاريخية من خصومهم تصعب على الباحث الولوج إلى تاريخ ظهور الفكر السفسطائي. فكتب الفلسفة لا تقبل بالسفسطة إلا من المنظور السلبي، ولا تذكرها إلا بوصفها خطابا شاذا تصدت له الفلسفة، وطردته من حوزة الخطاب ؛ كي تكون فلسفة بالمنظور المعرفي، فثمة عوامل فكرية تمثلت في الحيرة من أمر العقائد المتناقضة التي كانت تعتنق وتبحث عن تفسير وجودي للحياة، وسياسية تمثلت في التغيرات السياسية التي حدثت في أثينا نتيجة انتصارها على الفرس سنة (480ق.م) التي أكسبتها منزلة كبيرة بين المدن اليونانية، ودينية تمثلت في انهيار الأساطير القديمة التي كانت تفسر الكون والنظام الاجتماعي السائد، لتبدو فيما بعد مجرد أساطير فارغة فاقدة مصداقيتها، واجتماعية تمثلت في نتائج هذه التطورات السابقة، والاحتكاك بالأجانب عن طريق الحروب والتجارة ،كل تلك العوامل أسهمت في ظهور التيار وتطوره[2].

فالسفسطائية حركة فلسفية، وظاهرة اجتماعية في الوقت نفسه " تميز روادها بالكفاءة اللغوية،وبالخبرة الجدلية، وقد لعب وجودهم دورا كبيرا في تطوير البلاغة

---

(1) ينظر، الحجاج عند أرسطو، هشام الريفي، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم / 54.

(2) السوفسطائية وسلطان القول، محمد أسيداه، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته 2/ 373-375.

القولية التواصلية والحياة الفكرية عامة"(1)، أخذوا على عاتقهم تطوير البلاغة من خلال النقاشات والمجادلات التي دخلوا فيها، فاهتموا بجماليات الكلام والصور البلاغية ؛ وصولا "إلى الإقناع الذي كانوا يرومونه، فدشنت السفسطائية وعيا جديدا وفكرا مغايرا لفهم الواقع يقوم على أساس عالم متعلق باللغة، فاختاروا لنشر نظرتهم للحياة وظائف تعليمية في المجتمع، فكانوا معلمين متنقلين في القرى والمدن المختلفة، غرباء محترفين متنقلين، يحترفون الكلام، ويتاجرون بحكمتهم وثقافتهم،امتازوا بالقدرة على الإقناع، إقناع الناس والقضاة، وتغيير رأي الجموع.

يروي (جان فولكان) عن (بروديكوس دو سيوس) وهو أحد أشهر السفسطائيين أنه كان يسافر من مدينة إلى أخرى لإعطاء الدروس، وكان يطلب خمسين دراخمة للدرس الكامل عن ملائمة المصطلحات للأسلوب، ودراخمة واحدة للدروس المعدة للاستعمال الشعبي العام(2)، فوجهوا احترافهم نحو النفعية، والاستفادة من الحكمة التي تلقوها في نشر الحجاج ودوره الكبير في حياة المجتمعات، فاستندت ممارساتهم للحجاج إلى تصورهم للنافع، فهم لم يعلقوا النافع بالخير، بل علقوه باللذة حسب ما ذكر أفلاطون، لذة الاستهواء بالنسبة إلى المقول إليه، ولذة النفع بالنسبة إلى القائل، فربطوا الحجاج بالنفع، فمثلا المشهور عن (كوراكس) وهو خطيب صقلي أنه وجه الحجاج بحسب النفع الذي يقصد إليه المحاج، فقد قدم لتلامذته النصيحة التالية " إن انتدبت للدفاع عن قضية تعد بالعنف، وكان موكلك ضعيف البنية فقل:إنه من غير المحتمل لضعف بنيته أن يكون هو البادئ بالظلم، فإذا كان موكلك قوي البنية وكانت القرائن جميعا ضده في الظاهر

---

(1) تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور معاصر، د. مجدي الكيلاني / 85.

(2) ينظر تاريخ نظريات الحجاج / 23-24.

فقل: إنه كان من المحتمل جدا أن يتصور أنه المعتدي إلى حد أنه من غير المحتمل أن يكون فعل كذا" فتوجيه الاحتمال في الحجاج بحسب النافع[1].

لقد وُجه اللوم إلى السفسطائيين بسبب المرونة الكبيرة في عرض الآراء التي أدت إلى شيء من النسبية، تتجلى تلك النظرة من خلال دفاعهم عن مبدأ ألا يكون للشخص منهم التزام، وإنما يجب أن يوضح بأن كل شيء قابل للدفاع عنه[2] ورأى أرسطو أن خطابهم مبني على الأغاليط الدلالية من خلال التلاعب بالمقدمات والفرضيات والحجج والنتائج، فإذا أراد سفسطائي توجيه خطاب ما وانجازه، يقدم حجاجه على مرحلتين، ففي" المرحلة الأولى يقوم السفسطائي بالاعتماد على ثلاث وحدات لغوية تتميز بما تحمله وتنشئه من تعدد دلالي، وهذه الوحدات بعضها معجمي (الاسم المشترك) وبعضها صرفي (شكل اللفظ) والثالث صوتي (النبر) فبهذا يظهر السفسطائي حجاجه متناسقا رغم ما بداخله من عوامل التفكك والتناقض، أما العملية الثانية فيستخدم ما أسماه أرسطو التركيب ويتمكن بناء على ذلك في إحداث انزلاق في الحكم "[3].

يمكن تحديد اللغط الذي ارتكز عليه السفسطائيون عاملا مهما من عوامل رفض أفكارهم، فالركون إلى أهمية الكلمة ومحوريتها في العملية الحجاجية التواصلية يمثل خداعا متميزا، فالكلمات ليست الأشياء نفسها، والمتكلم لا يقول الأشياء بنفسها، وإنما كلمات تعبر عنها، فلا يجب عليه الثقة بتلك الكلمات التي تعبر عن الأشياء دون مناسبة اللغة للقول، ومراجعتها بشكل دائم حفاظا على مصداقيتها، وتذليل الفروق الدلالية بين الكلمات.

---

(1) ينظر الحجاج عند أرسطو / 60-61.

(2) ينظر تاريخ نظريات الحجاج / 24.

(3) الحجاج عند أرسطو / 245.

2. الحجاج عند أفلاطون:

اشتهر أفلاطون بمعاداته القوية للبلاغة ؛ لأنها تقوم على الرأي، والآراء تحيل دائما - بحسب رأيه - على وقائع مزعومة، في أغلبيتها ناتجة عن أهواء ومصالح ورغبات وظروف، كل واحد منهما يرى الواقع كما يشتهيه، فأراد التخلص من مسألة النسبية التي أقام السفسطائيون أفكارهم عليها، ولأن بلاغة السفسطائيين قائمة على فكرة الحشود المجتمعين في الأولمبياد وغيرها ؛ مما يوفر الإقناع المكثف دون وجود الاعتراضات[1].

سار أفلاطون على خطى أستاذه سقراط في محاربة السفسطائيين، فأراد عالما تسوده المثل والأخلاق، فابتكر جمهورية جمع فيها كل القيم النبيلة، وأخرج منها أولئك الذين ظنهم شرا عليها كالطغاة والشعراء والسفسطائيين.

عاصر أفلاطون اضمحلال أثينا وانهيار وجودها خلال القرن الرابع قبل الميلاد، ورأى ما تعرضت له من اضطرابات سياسية قادتها نحو الحرب الأهلية، وحمل على الحركة الجديدة في المجتمع المتمثلة بالسفسطائيين، معتبرا أن الروح الجديدة باندفاعها وسريانها العام في الواقع الأثيني تمثل بداية الإفلاس المجتمعي، ولا بد من إيقافها عبر نقدها والتشدد الأخلاقي والعقلي إزاءها[2].

اعتمد أفلاطون على منهج المحاورة في سبيل دحض توجهات السفسطائيين، فاعتمد الفلسفة الحقيقية مقابل فلسفة السفسطائيين الخادعة، فكان صراع الفيلسوف مع السفسطائي في أصول بناء الحجاج صراعا في التصورات والقيم، صراعا في تصور علاقة القول بالوجود، وعلاقة الإنسان بالإنسان. ففي مدينته عرض أفكاره من خلال

---

(1) ينظر مدخل إلى الحجاج، أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان د. محمد الولي، عالم الفكر، العدد 2 / مج 40 2011م / 21.

(2) ينظر بلاغة الإقناع في المناظرة، د. عبد اللطيف عادل / 34.

محاورته مع (قريجاس) ففرق في محاورته بين القول الخطبي والقول الجدلي، وبين الإقناع الذي يعتمد على الظن والذي يعتمد على العلم ؛ لأن الآخر يعتمد على مبادئ ثابتة وصادقة، على عكس الأول الذي اعتبره غير مفيد لأنه لا ينشئ إقناعا بل اعتقادا، اعتمد على منهج فحواه علاقة القول بالقيم، ففي المقطع الأول من محاورته وزن القول الخطبي (وهو قول حجاجي) بمعيار العلم، ووزنه في المقطع الثاني بمعيار الخير، والخير عنده الحق، ولا فصل بين هاتين القيمتين[1].

كان أفلاطون منشدا دولة الفلاسفة، متبرما من سلطة الخطباء الذين امتلكوا أذن الشعب، فاستمات في الدفاع عن الحقيقة ضد الظن، ينتصر للعلم والمعرفة كما أستاذه سقراط مقابل الاعتقاد، ولا يمكن لنا – في رأيه – الركون للحجاج الظني إذا ابتغينا الإقناع ؛ لأنه سيغدو قاصرا عن خدمة العدل والحقيقة[2].

ونظرا لأهمية القول الحجاجي في البحث الفلسفي من ناحية وفي التعامل القولي بين الإنسان والإنسان من ناحية أخرى أفرد أفلاطون له محاورة ثانية بعنوان (فيدر) وفيدر كان شابا مفتونا بالقول ودافعا في الكثير إلى إنشائه ؛ ولذلك استحضره في هذه المحاورة التي تدور في بعض مستوياتها حول القول وفتنته، فقدم مشروعا خطابيا يتجاوز في حقيقته الخطابة إلى الحجاج، فكان الخلاف بينه وبين فيدر في نوع الحجاج الذي افتتنوا فيه، فكانت محاورته قائمة على التدرج للخلاص من فتنة ذلك الحجاج[3].

يقوم التصور الأفلاطوني للبلاغة والحجاج على شقين أساسيين : يقوم الأول على رفض حاسم للبلاغة، خصوصا في المحاورة مع (قريجاس) بسبب اعتمادها

---

(1) ينظر الحجاج عند أرسطو / 62-63.

(2) ينظر بلاغة الإقناع في المناظرة / 38.

(3) ينظر الحجاج عند أرسطو / 68.

على الرأي العام، ذلك الذي يسعى إلى الاعتقاد لا المعرفة، بل إن الخطيب يقدم نفسه بوصفه أعرف العلماء بأمور تعود إليهم دون غيرهم، وهذه الإدانة للبلاغة هي التي جعلت أفلاطون يقول على لسان سقراط في محاورة قريجاس :" إني أصرح بأن الخطباء والطغاة لا يتمتعون في حواضرهم إلا بسلطة تافهة... وأن البلاغة ليست في حاجة إلى معرفة ماهية الأشياء التي تتحدث عنها، إنها بكل بساطة قد اكتشفت أنها أداة تستخدم للإقناع"[1] فيحاول أن يمسك عصا أهمية البلاغة من الوسط، فهي ذات خطورة إذا تحولت إلى أداة رأي قمعي، ويصل إلى القبول بها في المجتمع ولكن في إطار حوار ثنائي بين المتخاطبين، نقاش يقوم على التماس المعرفة والحقيقة. والشق الآخر يقوم على القبول بالبلاغة ولكن في شكل الحوار الثنائي ويكون فيه المتخاطبان ندين ومختصين في المجال المطروح للمناقشة[2].

3. الحجاج عند أرسطو :

ليس من السهولة بمكان الإلمام بالفكر الحجاجي الأرسطي، لاسيما أن فكره عدَّ مرحلة متطورة في فهم فنين أساسيين، يقومان على الحجاج، وهما الخطابة والشعر، فكان يرى بأن الخطيب لابد له من أن يتقن فنون الجدل ؛ لأن الخطابة قائمة عليه، ولابد للشاعر أن يتقن فنونه، وربط بين الخصائص الكلامية، والتعبير عند المتكلم وبين غاية الإقناع " فالإنسان لأنه متكلم معبر يبحث بطبعه عن الإقناع، ويحاوله، ويحاول أن يصل بكلامه إلى إقناع أكبر عدد ممكن من الناس بوسائل مستمدة من التفكير الذي حوبي به في الطبيعة "[3].

---

(1) مدخل إلى الحجاج / 23.

(2) ينظر نفسه / 22- 23.

(3) الخطابة، أرسطو طاليس، ترجمة إبراهيم سلامة / 22-23.

ألف أرسطو مؤلفات عديدة في مجال الفكر والفلسفة والمنطق والشعر والخطابة، لم تظهر في حياته، وهي كما يأتي بحسب ترتيب ابن خلدون[1] :

أ. كتاب المقولات / وهو كتاب في الأجناس العالية التي ينتهي إليها تجريد المحسوسات و هي التي ليس فوقها جنس.

ب. كتاب العبارة / وهو كتاب في القضايا التصديقية و أصنافها.

ت. كتاب القياس / وهو كتاب في القياس و صورة إنتاجه على الإطلاق و هذا آخر النظر من حيث الصورة.

ث. كتاب البرهان/ و هو النظر في القياس المنتج لليقين و كيف يجب أن تكون مقدماته يقينية. و يختص بشروط أخرى لإفادة اليقين مذكورة فيه مثل كونها ذاتية و أولية و غير ذلك. و في هذا الكتاب الكلام في المعرفات و الحدود إذ المطلوب فيها إنما هو اليقين لوجوب المطابقة بين الحد و المحدود لا تحتمل غيرها فلذلك اختصت عند المتقدمين بهذا الكتاب.

ج. كتاب الجدل/ و هو القياس المفيد قطع المشاغب و إفحام الخصم و ما يجب أن يستعمل فيه من المشهورات و يختص أيضا من جهة إفادته لهذا الغرض بشروط أخرى من حيث إفادته لهذا الغرض و هي مذكورة هناك. و في هذا الكتاب يذكر المواضع التي يستنبط منها صاحب القياس قياسه و فيه عكوس القضايا.

ح. كتاب السفسطة/ و هو القياس الذي يفيد خلاف الحق و يغالط به المناظر صاحبه و هو فاسد و هذا إنما كتب ليعرف به القياس المغالطي فيحذر منه.

---

(1) ينظر مقدمة ابن خلدون/ 645-646.

خ. كتاب الخطابة/ و هو القياس المفيد ترغيب الجمهور و حملهم على المراد منهم و ما يجب أن يستعمل في ذلك من المقالات.

د. كتاب الشعر/ و هو القياس الذي يفيد التمثيل و التشبيه خاصة للإقبال على الشيء أو النفرة عنه و ما يجب أن يستعمل فيه من القضايا التخيلية.

تحمل معظم مؤلفات أرسطو صبغة حجاجية، وتحمل كثيرا من آراء أستاذه أفلاطون. فذهب إلى أن الجدل والخطابة متصلان بعضهما ببعض ؛ لأنها أمور يلجأ إليها الإنسان بطبيعته الجدلية، في سبيل إثبات رأيه، ويحاولون جهد ما أمكنهم إقناع المخاطب بوجهة نظرهم، ومعارضة وجهة النظر الأخرى، وكل تلك الغاية تحتاج إلى وسائل لإثباتها[1].

إن بلاغة أرسطو هي بلاغة استدلال أكثر منها بلاغة مشاعر، فصناع الكلام يخصصون الجزء الأكبر من كتاباتهم لمسائل خارجة عن ماهية الموضوع، كي يؤثروا في المتلقي سواء أكان عاديا أو قاضيا مثلا، فيستعملون الظن والشفقة والغضب وغيرها، دون استعمال دلائل علمية متخصصة، وهذا ما رفضه أرسطو في نظريته[2] .

الخطابة والإقناع في الفكر الأرسطي :

الخطابة عند أرسطو لا تحدد ببعدها الإمتاعي بل بمهمة الإقناع التي تطلع بها؛ لذلك عرفها بقوله : "إنها الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان"[3] فالإقناع مركزي فيها، وغاية الإقناع الوصول إلى الاعتقاد،ويعتمد في إنتاجه على أركان متعددة هي[4] :

(1) ينظر الخطابة/ 75.

(2) ينظر تاريخ نظريات الحجاج / 29.

(3) الخطابة / 29.

(4) ينظر بلاغة الإقناع في المناظرة / 54- 55.

أ. الخطيب : وهو حجة مقنعة في الاستدلال الخطبي بأخلاقها وعنصر الثقة فيها، وهي عوامل تمنح الخطاب قوته ومصداقيته.

ب. المتلقي: أي ما يتعلق بالآثار النفسية والاجتماعية التي تحدث لدى المقول إليه، إذ لا بد من الإقناع من التهيئة النفسية والاجتماعية والانفعالية للسامعين من أجل استدراجهم وتحقيق انقيادهم للخطيب.

جـ. القول: فالإقناع يتوقف على نوعية القول الذي يجب بناؤه حجاجيا والعمل على تعبئته بالأدلة القادرة على إقامة الاعتقادات أو تغييرها ؛ لأن الإقناع يحدث عن الكلام نفسه إذا أثبتنا حقيقة أو شبه حقيقة بواسطة حجج مقنعة مناسبة للحالة المطلوبة.

انصرف اهتمام أرسطو إلى صناعة الخطابة بوصفها حجاجا إقناعيا، الهدف منه استرجاع الحقوق المسلوبة ودفع الضر عن المظلومين بوساطة اللغة، بهدف إنقاذ الخطابة من أزمتها الشكلية التي طغت عليها نتيجة أفكار السفسطائيين، وقسم رؤيته لدور اللغة على مستويين[1] :

الأول : معرفي لغوي، يتم فيه تطوير اللغة واختيار الحجج اللائقة بكل مقام.

الآخر: اجتماعي إنساني يعنى بقضايا الفرد والمؤسسة وعلاقة بعضهما ببعض.

قسم أرسطو الخطابة على ثلاثة أنواع، تبعا لاشتغال القول فيها[2] :

أ. الخطابة التشاورية : وتختص بالأمور العظام، وهي السياسة، ومقامات النصح، فبصلاح الخطابة يصلح المجتمع، ويبتعد عن الحروب، فيجب على الخطيب الابتعاد عن التحريض وتجنب الحشد نحو الشر.

---

(1) ينظر الحجاج في الخطابة النبوية، د. عبد الجليل العشراوي/ 19، والحجاج في البلاغة المعاصرة،محمد سالم الأمين الطلبة / 46 .

(2) ينظر فن الخطابة أرسطو / 16- 19.

ب. الخطابة المشاجرية : وتعلق بمجال المرافعات القضائية، وتتطلب معرفة الخطيب بطبيعة الدوافع التي تدفع الناس إلى ارتكاب الظلم والخصائص العقلية والأخلاقية لمرتكبي الظلم، وتتطلب معرفته بأركان الجور الثلاثة الجور والجائر والمجور عليه[1].

جـ. الخطابة التثبيتية : وتتعلق كما المشاجرية بالنصح، وقد تكون مدحا أو ذما.

تنطلق العملية الإقناعية عند أرسطو من مبدأ إرادة الخطيب قيام المخاطب بفعل أو ترك فعل، وتكون العملية ناجحة ومنتهية إذا تحققت هذه الإرادة بالفعل، فهناك مبدأ وغاية ووسيلة ونهاية، وينشأ الخطيب سعيا وراء تلك الغاية خطابا ملائما ومناسبا يعتقد أن المخاطب تعرف عليه وقبله واعتقد به، ومن ثم اهتدى واسترشد به علميا[2].

يرى أرسطو أن " كل معرفة اكتساب، فالفكر الإنساني في البدء، بمثابة لوح خلو من أية كتابة بالفعل، وأن كل تعلم مقدم أو متلقى بواسطة الاستدلال آت من معرفة سابقة. هذا ظاهر كيفما كان التعلم المعتبر، فالعلوم الرياضية وجميع الصناعات الأخرى تكتسب بهذه الطريقة، الأمر نفسه كذلك بالنسبة إلى الاستدلالات الجدلية سواء كانت قياسا أو استقراء...وبالطريقة نفسها تقنع الاستدلالات الخطابية ؛ لأنها تقدم إما الأمثلة وهي استقراء أو الأقيسة المقرة، فمل معرفة إذا مكتسبة من أوائل أي معارف متقدمة وسابقة "[3].

---

(1) ينظر الحجاج عند أرسطو / 280.

(2) ينظر حول التقنين الأرسطي لطرق الإقناع ومسالكه، د. حمو النقاري، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته 3/ 594.

(3) نفسه / 599.

الجدل والخطابة في الفكر الأرسطي :

يعد الجدل مبحثا فكريا، وسمة مميزة للفلاسفة والنخبة، فالمناقشات الجدلية كانت تتخذ للتأكد من القضايا والفرضيات. وغالبا ما تتخذ هذه القضايا بنى تساؤلية، وليس هذا بغريب في فلسفة يعتبر المُحكم فيها أهم من الجواب[1].

دارت أفكار أرسطو حول إيجاد العلاقة بين الجدل والخطابة في البلاغة، وصولا إلى الفصل بينهما، وحدد العلاقة بينهما بكلمة (المشاركة والمشاكلة) أما المشاركة فمن جهتين :إحداهما في القصد والثانية في الموضوع، أما المشاركة في القصد فلأن كل منهما يروم الغلبة في المفاوضات، والموضوع لأن ليس لكل واحد منهما موضوع محدد، أما المشاكلة فلأن مبادئهما المحمودات، لكن الجدل محموداته حقيقية، والخطابة محموداتها ظنية. فكان وعي أرسطو عاليا بخصوص انفتاح الخطاب البلاغي الجدلي على شتى صنوف المعرفة وتفاعله معها[2].

ووصل أرسطو إلى التفريق بين الجدل والخطابة، فالجدل مجاله حول مطلوب جدلي، وهو سؤال لا يوجد في خصوصه رأي آخر، بينما مدار الخطابة على القضايا التي تتميز بطابع المناقشة، وهي لا تقوم على السؤال والجواب فغايتها الإقناع، لكن الجدل يتسم بطابع المناقشة، وقد توجه الخطابة نحو شخص أو جماعة، بينما الجدل يكون فيه المتجادلان شخصين حقيقيين أو شخصين معنويين يمثلان فكرا أو تيارا معينا. وللجدل منافعه عند أرسطو فهو يكشف السفسطائيين ويفندهم، والخطابة موجهة نحو الشعب تحصن قيمه من الحجاج الزائف والإقناع الخادع.

---

(1) ينظر الحجاج في البلاغة العربية / 42.

(2) ينظر الحجاج في الخطابة النبوية / 18.

لقد رفض الحجاج الأرسطي كثيرا من الأساليب السفسطائية المغالِطة، مثلما رفض المثالية المفرطة، وغير الموضوعية لأستاذه، ودعا إلى بلاغة يكون الحجاج مركزها، وتكون العناية فيها بمختلف أطراف العملية التواصلية بالغة وأساسية ؛ ذلك لأنه لم ينظر إلى الحجاج نظرة اختزالية، بل تكاملية تفاعلية مع مختلف فروع المعرفة الإنسانية[1].

ثانيا: الحجاج في الفكر الغربي الحديث:

سنركز في هذا الجزء على أهم النظريات الحجاجية في الفكر الغربي المعاصر، وسنختار أهم ثلاث نظريات :

1. الحجاج عند بيرلمان وتيتكا :

نشر الفيلسوف والقانوني البلجيكي الأستاذ في جامعة بروكسل (شاييم بيرلمان) بمشاركة (لوسي أولبيرشتس تيتكا) كتاب (رسالة في الحجاج) وذلك عام 1970، وأعيد نشره أكثر من مرة تحت العنوان الفرعي (البلاغة الجديدة) الذي يرتبط بالبلاغة الأرسطية مع بعض التحديثات، ويدخل هذا الفهم الجديد في قطيعة مع المنطق البرهاني وفلسفة الوضوح على الطريقة الديكارتية ؛ ذلك لفتح المجال أمام منطق حجاجي غير رياضي[2]، فاعتبر بيرلمان أن التصور الديكارتي قاد إلى حصر غير مبرر للمجالات الواسعة والممتدة للفكر الإنساني، وهذه المجالات التي لا تقوم على الضرورة والبداهة هي ما يشكل موضوع الحجاج، إذ أن هذا الأخير يتعلق غالبا بالمحتمل من الأفكار، يقول بيرلمان:" إننا نلاحظ أنه في الميادين التي يتعلق فيها الأمر بالمفضل والمقبول والمعقول، فالاستدلالات ليست استنباطات شكلية أو

(1) ينظر الحجاج في البلاغة العربية / 59.

(2) ينظر تاريخ نظريات الحجاج / 41.

استقراءات... بل حجاجات "[1] ومثلت نظرية بيرلمان محاولة جديدة ومتطورة في تجديد الفكر الأرسطي، في وقت استقرت البلاغة في صيغتها المحسناتية الشعرية، محاولة لإعادة البلاغة إلى صيغتها الحجاجية حيث كانت المزينات الجمالية مجرد روادف لغوية ودعامات تسعى إلى بعث الإقناع والفعل، لا إلى الاستمتاع الجمالي غير العابئ بالتأثير وتعديل الرأي والسلوك، وهي محاولة لربط البلاغة المعاصرة بأصولها الأرسطية[2] .

عمل الباحثان على تلخيص الحجاج من التهمة الملاحقة لأصل نسبه وهي الخطابة، وهي تهمة المغالطة والمناورة والتلاعب بعواطف الجمهور، وعملا على تخليص الحجاج من صرامة الاستدلال الذي يجعل المخاطب به في وضع ضرورة وخضوع واستلاب رأي، فالحجاج عندهم ذو معقولية وحرية، يتخذ من الحوار المتكافئ سبيلا إلى الوصول للاعتقاد والتسليم، بعيدا عن الاعتباطية واللامعقولية[3].

تعريف الحجاج :

يعرف المؤلفان الحجاج بقولهما :" هو دراسة تقنيات الخطاب، التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم "[4].

---

(1) بلاغة الإقناع في المناظرة / 85.

(2) ينظر مدخل إلى الحجاج / 33.

(3) ينظر الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة، لبرلمان وتيتكا، عبد الله صولة، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم / 298.

(4) نفسه / 299.

إن قيمة التعريف السابق تكمن في بيان أن العمل الحاصل بوساطة الحجاج على صعيد العقل، وهو عمل التأثير النظري والإذعان والتسليم (وهو غاية الجدل عادة) مؤد إلى العمل السلوكي الذي كانت من جملة مصادره من منظور الخطابة العاطفة الملهبة والعواطف الجياشة، بمعنى آخر أن العمل الحجاجي ليس متوسلا إليه بالمغالطة والتلاعب بالأهواء والمناورة، وإنما هو عمل هيأ له التدبر والتعقل والنظر، بحيث تكون قوى الإنسان (العقل والهوى) متضامنة متفاعلة لا قوى منعزل بعضها عن بعض[1].

فنظرية الحجاج في مفهومهما منبثقة عمّا يعرف اليوم ببحوث البلاغة المعاصرة، وهي بحوث تهتم بالأساليب الإجرائية للغة، وتنويعات الخطاب ومقاماته، والاختلافات الاجتماعية والنفسية للمستمعين ؛ لذلك توسما في بحوثهما الإجراءات التطبيقية بمساعدة علوم كثيرة ذات صلة ؛ و نتيجة لذلك كان لمفهوم التداخل المعرفي دور أساس في طرحهم ؛ لأن أية عملية حجاجية ستعتمد في آلياتها على الأدوار المعرفية للعلوم المساندة، بل قد يستعين الباث بآليات يعلمها المستمع، لكنه لا يدرك دورها الحقيقي في الخطاب[2].

ويتحدث الباحثان عن الغاية الأساسية من الحجاج وهي إذعان العقول وحملها على التصديق لما يطرح عليها أو زيادة درجة الإذعان، فأنجع الحجاج ما وفق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يحملهم على العمل المطلوب إنجازه أو الامتناع عنه، وتحقيق الإقناع يقع في منطقة وسطى بين الاستدلال والإقناع، فيستدعي الاستدلال عناصر دلالية بعيدة عن المفهوم

---

(1) الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة / 29.

(2) ينظر مفهوم الحجاج عند بيرلمان تطوره في البلاغة المعاصرة، د. محمد سالم محمد الأمين الطلبة، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته 2/ 493.

السفسطائي (الاشتراك المعنوي) بل يجب أن تكون أحادية المعنى ؛ كي يفهمها الجميع دون استثناء ؛ مما يؤدي إلى الابتعاد عن التلاعب بالتأويلات الذي يلجأ إليه الباث، ويتم الاستدلال بأن تستنج من المقدمات نتائج تفضي إليها تلك المقدمات، وهذه الفكرة بعيدة عن الحجاج الذي تكون فيه الحقائق غير مضمونة أو ضرورية، كما شأنها في الاستدلال، فالحجاج ليس إقناعا بالمعنى المحض، على اعتبار أن الإقناع يستعمل العاطفة والخيال سبيلا في التسليم مبعدا العقل، ومتجنبا حرية الاختيار، وهما من مقومات الحجاج[1] ؛ لذلك يميز الباحثان بين نوعين من الحجاج :حجاج إقناعي، هدفه إقناع الجمهور الخاص، بمخاطبة الخيال والعاطفة وتحييد العقل، وحجاج إقتناعي، يقوم على الحرية والعقلنة وهو حجاج غير ملزم وغير اعتباطي وهو قمين بأن يحقق الحركة الإنسانية من حيث هي ممارسة لاختيار العقل، فإذا كانت الحرية تسليما مسبقا ومفروضا سلطويا، يسلب فيها العقل اختياره، فكل اختيار حينئذ يكون ضربا من اللغط والاعتباط[2].

2. الحجاج عند " ديكرو"و"أنسكومبر":

عرض المؤلفان نظريتهما في الحجاج عام(1983م) في كتاب " الحجاج في اللغة" وهو حجاج لساني بحت ، إذ يقوم المتكلم بتقديم قول ما يفضي إلى التسليم بقول آخر، وهو عمل صريح بالحجة، وعمل بالاستنتاج،وتستند أعمالهما مرجعيا إلى الإسهامات التداولية التي ميزت نظرية الأفعال اللغوية عند "أوستين" و"سورول" كما تستند إلى بعض أبحاث "إميل بنفست" وتمثل نظريتهما تيارا تداوليا مختلفا قارب الحجاج من زوايا مغايرة، فلم يكن همهما بناء الحجاج على الأسس الفلسفية أو المنطقية أو البلاغية، ومن ثم لم ينشغلا بوقائع الإقناع، بل بحثا

---

(1)ينظر الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته / 300.

(2) ينظر مفهوم الحجاج عند بيرلمان / 500.

في الدور الحجاجي الذي يلعبه الكساء اللغوي لهذه الوقائع ؛ لذلك انتهيا إلى أن اللغة تحمل في طياتها بعدا حجاجيا كامنا في صميم بنيتها الداخلية، مسجلا فيها وليس عنصرا مضافا، فمعنى الأقوال لا ينفصل عن طابعها الحجاجي"[1]، فالحجاج موجود في بنية اللغة ذاتها، وليس فيما ينطوي عليه الخطاب من بنيات شبه منطقية، فالخطاب وسيلة الحجاج ومنتهاه في الوقت نفسه، واللغة تحمل بعدا حجاجيا في جميع مستوياتها، فهي وسيلة سجالية - بحسب نظريتهما – ومسرح لظهور المقتضى بوصفه شكلا من أهم الأشكال الحجاجية الكامنة، يقول ديكرو: " ليس المقتضى حدثا بلاغيا مرتبطا بالقول، وإنما هو منغرس في اللغة نفسها. وهو ما يدعونا،ضرورة إلى أن نعتبر اللغة، بصرف النظر عن استعمالاتنا المختلفة لها، مسرح محاورة ومواجهة بين الذوات البشرية "[2].

دور الحجاج في التداوليات المدمجة:

ظهر مصطلح التداوليات المدمجة في أعمال (ديكرو، و أنسكمبر)، ومثلت أساس نظرتهما في الحجاج، وتهدف إلى الدفاع عن أطروحتين أساسيتين :

الأولى : تقوم فيها التداولية المدمجة على الدفاع عن تصور لا وصفي للغة، مفاده أن الأقوال لا تبلغ حالات أشياء في الكون (الوظيفة التمثيلية) بل تبلغ أعمالا لغوية من قبيل (الأمر والنهي والتمني والإخبار والحجاج).

---

(1) ينظر بلاغة الإقناع في المناظرة / 95.

(2) الحجاج في القرآن / 35.

الثانية : أطروحة الإحالة الانعكاسية، وتتلخص في أن معنى قول ما صورة من عملية إلقائه، وبؤرة فهم قول ما هي فهم دواعي إلقائه،ويكون معنى القول متمثلا في النمط الذي سيق لإنجازه[1].

يرى الباحثان استنادا إلى هذه النظرية أن التداولية لا توجد إلا مدمجة في الدلالة، فهي ليست مخرجا أخيرا لها، ومن ثم يرفضان التقسيم الخطي / التراتبي، الذي تعتمده النظريات اللسانية التقليدية في مقاربتها للملفوظات، إذ قسمتها على مستويات متتالية تبدأ بالتركيب ثم الدلالة ثم التداولية، وإنما مدمجة في بعضها، فكل ملفوظ يحمل بشكل جوهري وداخلي مؤشرات تلفظية تمنحه معناه، وتفسر اقترانه بهذا المعنى دون غيره، فكل ملفوظ يحمل في صورته مسارا لولوج دلالته ودليلا لتأويله ، فلو قلت : لقد نسيت مرة أخرى أين وضعت مفاتيحي، فإن التداولية المدمجة تقر هنا بطلب إخبار عن موضع المفاتيح دون التصريح به[2].

فثمة عوامل غير لسانية تساهم في بنية النص، وتوجه عملية التخاطب، كبيئة المتكلم، والفضاء الزمكاني، ونوعية المستمع، تسهم بشكل كبير في عملية التواصل، وهذا خلاف ما جرت عليه النظرية البنيوية، والنحو التوليدي بصفة خاصة، من اعتبار الوظيفة التمثيلية للغة وظيفة أساس، وما الوظيفة التواصلية إلا وظيفة ثانوية.

إن التداولية المدمجة نظرية دلالية، لا تخضع لقانون الصدق والكذب، فلا تعتمد على الوظيفة الإبلاغية للخطابات، إلا في درجة ثانوية، وتعتمد على الحجاج بالمعنى الفني. ونفرق هنا بين الحجاج المنطقي والحجاج اللساني، فالحجاج المنطقي ثابت في قالب واقعي كقولنا :(كل إنسان فانٍ، سقراط إنسان، سقراط فانٍ)

---

(1) ينظر القاموس الموسوعي للتداولية، جاك موشلار،آن روبول، ترجمة مجموعة من الباحثين 1/ 35.

(2) ينظر بلاغة الإقناع في المناظرة / 96.

فالقوالب التي ترد فيه ثابتة مستقلة عن بعضها البعض، تحيل كل قضية منها على العالم الخارجي دون أي تعالق يذكر، والتعالق فيها ليس بين الملفوظات، وإنما مع القضايا التي تمثلها الملفوظات مع الخارجي، أما في الحجاج اللساني فالعلاقات الحجاجية التي نجدها في الخطاب الحجاجي مرتبطة بطبيعة الملفوظات ومعناها ذاته، وليس بأوضاع العالم، أو العلاقات المنطقية والعقلية التي تحكم قضايا البنى البرهانية ، وكذا فإن توجه الحجاجيات اللسانية كالقوة الحجاجية، والتوجه الحجاجي، والقصد الحجاجي والمقدمات المضمرة، والسلم الحجاجي، مفاهيم لا يمكن الاستغناء عنها أثناء وصفنا للملفوظات، ومن الأمثلة على ذلك قولنا : أنا جد متأخر، لكنّي سأشرب معكم كأسا من الشاي، فهنا المتكلم يورد حجة مفادها أنه متأخر، والتي تفترض أنها تعزز نتيجة أنه سينصرف، ولكنه يوهنها حجاجيا اعتمادا على الرابط الحجاجي (لكن) متبوعا بالنتيجة (سأشرب معكم كأسا من الشاي). إن هذا الوصف يراعي معطيات السياق التداولي، وخاصة الاستراتيجية التلفظية للمتكلم (مقاصده المضمرة) وهذا ما دعا (ديكرو، و أنسكومبر) إلى التنظير للتداولية المدمجة،ومقتضاها عندهم :أن التداولية يجب إدماجها في الوصف الدلالي، وليس فقط إضافتها إليه كما يمكن إدماج الظواهر التداولية في صميم الدراسة اللسانية، فيجب إضافة الدلالة إلى الجمل، إذ يجب إسناد دلالة كل جملة بشكل يسمح بتوقع معنى الملفوظ في سياق محدد[1]، ولو نظرنا مثلا إلى الأقوال التالية :

1. أ. كل التلاميذ حاضرون، ومحمد تلميذ.ب. إذن محمد حاضر.
2. السماء غائمة، كما أن مؤشر البارومتر نزل بشكل واضح، إذن فسوف تمطر اليوم، ثم إن النشرة الجوية توقعت ذلك. فنحن في المثال (1) أمام

(1) ينظر نفسه / 63.

استدلال برهاني ؛ لأنه يستند في مشروعيته وقوته من القوانين المنطقية، التي ينتظم وفقها، أما المثال (2) فلا نستنتج فيه سقوط المطر وجوبا، أو بلغة المناطقة.

فليس هناك لزوم في النقلة من الحجة إلى النتيجة، كما في المثال الأول، ولكن هذا الانتقال يتم بناء على معرفتنا بالعالم أولا، ثم استنادا إلى الحجج المعروضة في الملفوظ، التي قدمت لنا مبررات تجيز وقوع النتيجة (سقوط المطر) فالحجاج هنا لساني ؛ لأن الحجج كثرت احتمالات النتيجة[1].

من كل ذلك نفهم أن الحجاج اللساني فلسفي تداولي، نعده بناء مثنويا تقابليا يتواجه فيه عارض ومعترض، ويتوجه فيه كل منهما بآليات إقناعية خاصة وحقوق وواجبات محددة، هذه المقابلة المثنوية من شأنها أن تغير تصديقات أو إعتقادات المتقابلين، بقصد من المتكلم، بحيث يتحول الفعل الكلامي إلى فعل حجاجي، ويتحول الحجاج إلى مفاعلة بين طرفي الخطاب[2].

العلاقات والمواضع الحجاجية :

إن الحجاج في هذه النظرية علاقة دلالية تربط بين الأقوال، بحيث يقوم الاشتغال الحجاجي على تقديم المتكلم لقول معين يعتبر حجة، يستهدف إقناع المستمع بقوله، سواء أكانت النتيجة صريحة أم ضمنية، وهي علاقات خطابية لا يحكمها الاستلزام المنطقي، وتسيِّر المواضع الحجاجية تلك العلاقات وتؤطرها[3].

---

(1) ينظر الحجاجيات اللسانية عند ديكرو / 226- 227.

(2) ينظر في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن / 66.

(3) ينظر في بلاغة الإقناع في المناظرة / 98.

ويمثل الموضع مبدأ حجاجيا عاما من المبادئ التي يستعملها المتخاطبون ضمنيا ؛ للحمل على قبول نتيجة ما، فالموضع فكرة مشتركة مقبولة لدى جمهور واسع، وعليها يركز الاستدلال في اللغة، ولها بنية دلالية مخصوصة.

ولما كانت بعض التراكيب والأساليب تمثل تعليمات وتوجيهات حجاجية منذ المستوى اللغوي، فإن الجملة التي تنجز في مقام مخصوص لا تفضي إلى نتيجة محددة إلا بالإحالة على موضع من المواضع، وبعبارة أخرى فإن دلالة الجملة تمثل مجموع المواضع التي تمكن من تطبيقها ما أن يقع قول الجملة. وما اختيار جملة ما في مقام ما دون غيرها إلا اختيار لتطبيق هذا الموضع دون غيره[1].

الروابط والعوامل الحجاجية :

تستهدف نظرية " ديكرو" توطيد نظرية التداوليات المدمجة،التي ترتكز على نظرية مقتضاها أن اللغة نفسها تحدد الوجهة الحجاجية للأقوال. وتتضمن كثير من الأفعال التلفظية وظيفة حجاجية، تروم إلى جعل المخاطب يصل إلى نتيجة ما تتجلى في موسومات تظهر في بنية اللغة نفسها، ولا تحدد القيمة الحجاجية لقول معين بناء على المعلومات التي يتوسل بها المخاطب، بل يمكن أن تتضمن الجملة مورفيمات أو تعبيرات أو صيغ لغوية تمنح للقول وجهته الحجاجية[2].

السلالم الحجاجية :

تنطلق نظرية السلم الحجاجي من إقرار التلازم في عمل المحاجة بين القول الحجة (ق) ونتيجته (ن) ومعنى التلازم هنا أن الحجة لا تكون حجة بالنسبة للمتكلم إلا بإضافتها إلى النتيجة مع الإشارة إلى أن النتيجة قد يصرح بها وقد تبقى ضمنية[3].

---

(1) ينظر نظرية الحجاج في اللغة، شكري المبخوت، ضمن أهم نظريات الحجاج / 383.

(2) ينظر الحجاج والمواطنة، د. توبي لحسن / 85.

(3) ينظر نظرية الحجاج في اللغة/ 363.

فالسلم الحجاجي مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية وموفية بالشرطين التاليين :

1. كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.
2. كل قول كان في السلم دليلا على مدلول معين، كان ما يعلوه مرتبة دليلا أقوى عليه، فقولنا : ناصر من أكفأ الطلاب ؛ فقد نال ميدالية التقدير من الدرجة الأولى، ونال وسام الملك من الدرجة الأولى، ثم نال وسام الملك من الدرجة الممتازة، فنيله ميدالية التقدير هي حجة أولى على كفاءته، والوسام الآخر حجة أقوى من الحجة الأولى، أما الوسام الثالث فهو أقوى الحجج أو الأدلة على كفاءته،ونيله لأحد الأنواط أو الأوسمة دليل على نيله ما دونه حسب ما تقتضيه الأنظمة.

3- الحجاج عند ميشيل مايير :

يبني مايير مشروعه الحجاجي مما استخلصه من مفاهيم المدرسة الفرنسية،وكذلك أعلام البلجيك وخاصة بيرلمان، ولكن القسم الأهم في نظريته ما له علاقة بالمساءلة[1].

ينطلق مشروع مايير الفكري من فكرة مفادها أن العقلانية الأوربية عرفت انهيارات متتالية منذ مطلع القرن العشرين، قادتها إلى العدم وإلى الحرب، وسبب تلك الانهيارات – بحسب رأيه – يعود إلى تكون هذه العقلانية على أسس المقتضى والحكم وعدم التناقض، التي انغرست في صلبها منذ أرسطو. وعلى الرغم من أن المشروع الديكارتي قدم نفسه بوصفه تجاوزا للأرسطية، وبوأ الذات المفكرة موقع

---

(1) ينظر الحجاج في القرآن / 37-39.

الضامن والمكون لعملية التفكير، فإن هذه الذات سواء مع (ديكارت) أو (كانط) ظلت متعالية تلغي أية مساءلة وتعطي اللوجوس (اللغة والعقل) شكل المقتضى[1]. يقدم مايير نفسه بوصفه أحد منظري البلاغة المعاصرة الذي أحدثت دراسته الأخيرة طفرة نوعيّة في تحليل الخطاب في مجال التّواصل والإقناع، انطلاقا من وجهة نظر فلسفيّة تعتمد البعد الافتراضي وتستند إلى الاختلافات الإشكاليّة في التّأويل والفهم[2].

يقدم مايير مشروعه على أساس استعادة الفلسفة وظيفتها الأولى (المساءلة) وأن تسترجع طابعها الإشكالي ؛ لذلك أعطى في كتابه(De Problematologie) قوة الموقف الفلسفي وشكله، بحيث اعتبر السؤال أصل الفلسفة.

أراد مايير من مشروعه الفلسفي أن يكون تجاوزا للراهن انطلاقا من قراءة تاريخ الفلسفة من منظور جديد، يقول :" اليوم مع موت الذات المؤسسة اختلفت الأمور (عما كانت عليه) فلم يعد من الممكن التفلسف دون أن نعيد التمشي من الأساس" أما الأساس الذي يتحدث عنه فهو العودة بالفلسفة إلى وظيفتها الأولى التي ليست إلا المساءلة التأسيسية، وعلى هذا الأساس يعود مايير إلى الفلسفة اليونانية ؛ ليبحث فيها عن نشأة السؤال الذي اقترن بميلاد الفلسفة والنظر في أبعادها وخصوصياتها[3].

وقد استفاد مايير "من مختلف العلوم المعاصرة للتّواصل والنّظريات المعرفيّة والهرمونيتكا والظّاهراتيّة في قراءة البلاغة الكلاسيكيّة والجديدة معا، فتمكّن من إبراز

---

(1) ينظر، بلاغة الإقناع في المناظرة / 103-104.

(2) ينظر،عندما نتواصل نغير، عبد السلام عشير / 204.

(3) ينظر البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار، محمد علي القارصي، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم / 389.

المكونات الجديدة للخطاب الحجاجي البلاغي من خلال تصّور جديد منفتح على العلوم الإنسانيّة والفلسفيّة بالخصوص"[1].

يولي مايير الصور البلاغية أهمية قصوى في تأسيس الحجاج ، فاستند إلى الفكر الأرسطي وإسهامات بيرلمان في هذا المجال، وحسب مايير فإن البلاغة تشغل مساحة كبرى في التصورات التي يشكلها الإنسان عن نفسه وعن العالم ؛ لأن موضوعها أوجه استعمال الخطاب المنذور لإثارة الإعجاب كما للإقناع، وللترافع كما للتداول وللاستدلال كما للافتتان ؛ لذلك شدت إليها الانتباه منذ أرسطو، وبهذا المعنى فلا تكون البلاغة إلا حجاجية ؛ لأنها تربط المحتمل والخلافي في المجال الإنساني، ومهمة الحجاج أن يشتغل في خضم هذا التواصل الإنساني، ويتكون بدوره من السؤال والاستشكال، أي إن الناس حينما يتكلمون يساءلون ويستشكلون، أي يحاججون[2].

لعل الجدة في نظرية مايير تتجلى في المساءلة، فالسؤال يتمثل استشكالا، وهو بدوره يتطلب حلا، وحله يكمن في الإجابة عليه،وقد تكون تلك الإجابات صريحة أو ضمنية ؛ لذلك يعرف الحجاج بدوره بأنه " دراسة العلاقة القائمة بين ظاهر الكلام وضمنيه"، فيكمن الحجاج عنده في إثارة الأسئلة، وإثارة الأسئلة هي عنده الأساس الذي ينبني عليه الخطاب[3].

ثالثا: الحجاج في الفكر العربي القديم :

تختلف البلاغة العربية عن نظريتها الغربية،من حيث ظروف النشأة والخصوصية الثقافية، فنشأة البلاغة الغربية مرتبطة بالجدل، في نطاق فلسفي منطقي،

---

(1) ينظر،عندما نتواصل نغير / 205.

(2) ينظر، بلاغة الإقناع في المناظرة/ 107.

(3) ينظر الحجاج في القرآن/ 39.

يحاول تصنيف الأقاويل بحسب قدرتها على الإقناع وقول الحقيقة، فهي تقع في مجال الاختلاف والخلاف إذ يمكن للآراء أن تتعدد وتتباين وحيث يدعي الإنسان إلى مقارعة الرأي بالرأي والخطاب بالخطاب ولا تكون الغلبة إلا من حجته أقوى، بينما نشأت البلاغة العربية في أحضان الشعر العربي، وكانت تعبيرا عن جماليات القول[1].

لقد أولى العرب قديما اهتماما خاصا للكلام والتخاطب، فكانوا يقسمون الكلام بحسب المتلقي،يقول أبو هلال العسكري :" وإذا كان موضع الكلام على الإفهام فالواجب أن تقسّم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السّوقي بكلام السّوقة، والبدويّ بكلام البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه، فتذهب فائدة الكلام، وتعدم منفعة الخطاب"[2] فالمخاطب مدار القول عندهم، يدور الكلام ما دارت حالته ووضعه في المجتمع، و إفهامه غاية المتكلم، ولا يوصف الكلام بالبيان إلا إذا كان مفهما :" لأن مدار الأمر على البيان والتبيين وعلى الإفهام والتفهيم وكلما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل، إلا أن المفهم أفضل من المتفهم وكذلك المعلم والمتعلم" [3].

اختلفت مواضع الحجاج في الثقافة العربية، ففي الجاهلية العصر الذي يمثل نقاء اللغة كانت الخطابة التي حوت في كثير من جوانبها أبعادا حجاجية واضحة، كخطب قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي، والمفاخرات والمجادلات والوصايا،

---

(1) ينظر مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، حمادي صمود، ضمن أهم نظريات الحجاج/ 18 - 19.

(2) كتاب الصناعتين(الكتابة والشعر) أبو هلال العسكري(ت395هـ) / 21.

(3) البيان والتبيين،أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(ت255هـ)،تحقيق عبد السلام محمد هارون1/ 11.

لهم خطب مشهور فقد " ذكروا من خطب العرب والمناظرات الشعرية، وكانت لهم خطب مشهور فقد " ذكروا من خطب العرب العجوز وهي خطبة لآل رقبة، ومتى تكلموا فلا بد لهم منها أو من بعضها والعذراء وهي خطبة قيس بن خارجة ؛ لأنه كان أبا عذرها والشوهاء وهي خطبة سحبان وائل وقيل ذلك لها من حسنها، وذلك أنه خطب بها عند معاوية فلم ينشد شاعر ولم يخطب خطيب"[1]، حتى نزل القرآن على صدر الرسول الكريم، فكان نصا حجاجيا بامتياز، بالنظر إلى طبيعة القوم الذي نزل فيهم فقد وصفهم القرآن الكريم بالعناد، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾(مريم97) فدعا إلى التفكر والتدبر وإعمال العقل، قال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾(البقرة266). إن أهم ما يميز النص الحجاجي القرآني ظروفه التي نزل بها، فنزل القرآن الكريم في ظروف صعبة، لاسيما أن الغاية من نزوله تغيير المعتقدات الدينية وسلب السلطة الدينية والاجتماعية التي كانت تتحكم بها قريش، فكان لا بد له من منطق عقلي حجاجي متوازن يستطيع فيه تغيير تلك المعتقدات.

ثم تغيرت الظروف بعد تمكن الدين الإسلامي، وتغيرت قوانين الحياة، وأصبحت الانقسامات داخل الدين الواحد نفسه، فكثرت مذاهبه وأطيافه، وانبثقت مذاهب كلامية عديدة، اعتمدت على المناظرة والجدال في إثبات هويتها. ساعد في ذلك استبداد بني أمية بالحكم، وإشاعتهم أن ذلك الاستبداد مستمد من الحكم الإسلامي كانت له تبعاته، خاصة فيما عرف عنهم بأنهم يتصرفون في رقاب الناس وأرزاقهم حسب مشيئتهم، وليس بوازع الدين، ولتعليل ذلك لجئوا إلى إعطاء تأويل للنصوص يتماشى مع أهوائهم وأهدافهم من الدولة، وكان ذلك مبعثا لانطلاق التناظر والتحاجج بين المسلمين بعد مرحلة التسليم والتصديق بكل ما جاء به النبي

(1) البيان والتبيين 1/ 348.

(ص) وجعل الواقع الجديد المسلمين يتوزعون على مذاهب مختلفة وآراء متعدد وكان ذلك مجالا خصبا لنشوء الحجاج[1].

يمكن لنا أن نتلمس ملامح الحجاج في الثقافة الإسلامية في ثلاثة اتجاهات:

- اتجاه أدبي خطابي يمثله الجاحظ.
- اتجاه منطقي فقهي يمثله ابن وهب.
- اتجاه بلاغي منطقي يمثله السكاكي.

الجاحظ(ت 255هـ) :

كان الجاحظ رجل محاجة ومناظرة، متكلما وعارفا بتصاريف الكلام، معتزليا ملما باللغة والنحو والأديان والثقافات، عايش فترة خصبة في التاريخ الإسلامي، نضجت فيها العلوم والمذاهب والاتجاهات، وأضفى ذلك العصر على مذهبه بعدا جدليا آخر[2]،انخرط في نحلة تعد اللغة والبلاغة سلاح المناظرين والمجادلين، الذين يتوخون نصرة مذهبهم والإقناع به؛ لذلك ربط البلاغة بأهداف إقناعية محددا للكلام أدوارا في الخصومة، ومنازعة الرجال ومناضلة الخصوم، ومحاججة أرباب النحل ومقارعة الأرباب[3]، يعرف الجاحظ البيان بقوله : " والبيان اسم جامع لكل شيء، كشف لك قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير ؛ حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل ؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجرى القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذاك هو البيان في ذلك

---

(1) ينظر في تأسيس الحجاج لدى مفكري الإسلام، علي الإدريسي، ضمن التحاجج طبيعته... / 84.

(2) ينظر الحجاج في الخطابة النبوية / 45.

(3) ينظر بلاغة الإقناع في المناظرة / 61.

الموضع "[1]. فالمشروع البلاغي للجاحظ يقوم على وظيفتين أساسيتين، الإفهام والإقناع :

1. الوظيفة الإقناعية : فالوظيفة الخطابية وما يتصل بها من إلقاء وإقناع، واحتجاج ومناظرة تعد مناط القول. فتحليل استراتيجية كتاب البيان والتبيين يوضح وجود محاولة لوضع نظرية لبلاغة الإقناع، مركزها الخطاب اللغوي، فانتبه الجاحظ لسلطان الكلام وعارضة الاحتجاج وما لهما من مفعول قوي في الاستمالة وجلب انخراط المستمعين[2].وتكون مراعاة المقام شرطا لازما في كل تواصل بياني يروم المنفعة والصواب، وقد تواترت في البيان والتبيين جملة من المصطلحات التي دلت على هذه الشروط كالمقام والحال والأقدار والمشاكلة والمطابقة.
2. الوظيفة الإفهامية : و" بدونها لا تقوم الوظائف الأخرى، التي لا تعدو أن تكون تطويرا لها يؤدي إليه نوع المتكلم وجنس الكلام "[3] فالتواصل لا يتم إلا من وجه الإفهام والتفهم، فحكمته شروط عامة وسمت الثقافة والمجتمع الإسلاميين خلال هذه الفترة مناطهما الدين من جهة وطبيعة المجتمع الإسلامي من جهة أخرى، فمناط التكليف الديني يقوم على إفهام المكلفين، فلا تكليف دون إفهام، وكذلك فالظروف التاريخية التي عاشها الجاحظ من تنوع الثقافات الوافدة على المجتمع الإسلامي ؛ لذلك لا بد للغة من أن تحتفظ بشرط الإفهام منها من تفشي اللحن[4].

---

(1) البيان والتبيين 1/ 76.

(2) ينظر بلاغة الإقناع في المناظرة / 64.

(3) التفكير البلاغي عند العرب، حمادي صمو / 200.

(4) ينظر بلاغة الإقناع في المناظرة / 63.

الحجاج في مفهوم ابن وهب(عبيد الله بن سليمان بن وهب الحارثي ت288هـ):

انشغل ابن وهب في معالجة البيان بالنظر إلى قيام المعاني في النفس ؛ لأنه يرى بأن أول قسم من الدلالة قائم على بيان الأشياء بذواتها وهو "بيان الاعتبار" فإذا تحقق هذا النوع جاء النوع الثاني وهو "بيان الاعتقاد" ليتم من خلاله إبلاغ المتلقي بما اعتقد شفاهة أو كتابة أي " بيان اللسان أو بيان الكتاب" وهذه هي أنواع البيان الأربعة عند ابن وهب[1] :

أ. بيان الاعتبار : ويتحقق في بيان حال الأشياء المحسوسة أي أن " الأشياء تبين بذواتها لمن تبين، وتعبر بمعانيه لمن اعتبر"[2]، سواء أكان ظاهرا أو خفيا.

ب. بيان الاعتقاد : و"يحصل في القلب عند إكمال الفكر واللب"[3] وله ثلاثة أنواع حق ومشتبه به وباطل.

ت. بيان العبارة، ويتحقق باللسان أو بالقول، و به أقسام ظاهرة أو باطنة.

ث. بيان الكتاب، لتعم فائدته الحاضر والغائب.

وفي كل أنواع البيان السالفة بيان ظاهر وآخر باطن :

أ. البيان الظاهر : وهو المستغني عن الاستدلال عليه والاحتجاج له بذكره، إذ لا خلاف فيه، ففي بيان الاعتبار يكون ما " أدرك بالحس كتبياننا حِرارة النار وبرودة الثلج عند الملاقاة لهما " وفي بيان الاعتقاد في حال ظهور "

---

(1) ينظر الحجاج ف الخطابة النبوية / 51.

(2) البرهان في وجوه البيان، ابن وهب، تحقيق حفني محمد شرف،مكتبة الشباب، القاهرة، 1969، /56.

(3) ينظر بلاغة الإقناع في المناظرة / 63.

مقدمات قطعية كظهور الحرارة للمتطبب عند توقد اللون وسرعة النبض واحمرار اللون " فالظاهر عنده البديهي الذي لا خلاف فيه.

ب. البيان الباطن: وهو عكس النوع الأول، يعود فيه البيان إلى" ما غاب عن الحس واختلفت العقول في إثباته فـ" في بيان الاعتقاد المشتبه الذي يحتاج إلى التثبت فيه وإقامة الحجة على صحته" وفي بيان العبارة فالباطن فيه يحتاج إلى التفسير، كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(الكهف29) فظاهر الكلام يكون على التفويض، وباطنه يقوم على التهديد والوعيد[1].

استند ابن وهب في كتابه البرهان في وجوه البيان إلى الاستدلال والإقناع، وارتبطت بلاغته بالخطابة ، ويمكن "تلمس الصفة الإقناعية في دفاع ابن وهب عن البيان المعرفي، حين اعتبر بأن وجوه البيان تشف عن العملية العقلية وتعكس نشاطها، فالناس يدركون الوجود ومشاهده عن طريق العقل والحواس (الاعتبار) ثم يختزنون هذه المعارف فتركز في نفوسهم لتصبح اعتقادا ينقلونه إلى غيرهم بالعبارة والكتاب ؛فيحققون بذلك تداوله"[2]، ويمكن إيجاز أهم ملامح التفكير البلاغي عند ابن وهب بالترتيب المنطقي لأقسام البيان، وكذلك الإشادة بالعقل، وكذلك البعد الحجاجي للقياس والاستدلال، بوصفهما انتقالا من مقدمات إلى نتائج، يقول:" والنتائج إحداها ما صدر عن قول مسلم في العقل لا خلاف عليه ؛ فتكون النتيجة عنه برهانا، كقولنا: إذا كان الزوج ما رُكب من عددين متساويين فالأربعة زوج. والأخرى ما صدر عن قول مشهور إلا أنه مختلف فيه ؛ فتكون النتيجة عنه إقناعا، كقولنا: إذا كان حق البارئ عز وجل واجبا لأنه علة لوجودنا، فقد وجب حق الوالد أيضا علينا...والثالثة

---

(1) ينظر الحجاج في الخطابة النبوية / 51-52.

(2) بلاغة الإقناع في المناظرة/ 69.

ما صدر عن قول كاذب وضع للمغالطة، كقولنا: إن اللصوص يخرجون بالليل للسرقة، ففلان سارق لأنه خرج بالليل"[1]، فالبيان عنده يقوم على الظن والاحتمال، ويستند على الرأي والاختلاف، ويعتمد الظن لا اليقين، والانتباه لدور المغالطة كآلية تقويمية حجاجية، وذلك ينسجم مع التفكير الحجاجي الأرسطي، وهنا تكمن حاجة البلاغة إلى المنطق باعتبار البيان قضية منطقية علاوة على كونها بلاغية[2].

السكاكي(ت626هـ) :

وصلت البلاغة العربية على عهد السكاكي إلى مرحلة التقعيد، بحيث تمكن من تنظيم أقسامها. وارتبط البيان عند السكاكي بما يحققه من منفعة تتمثل في الاحتراز عن الوقوع في الخطأ، وموضوع علم البيان عنده الصيغ التي لا تقف عند دلالتها الوضعية، بل تتجاوزها إلى دلالات عقلية، إشارة إلى الملازمات بين المعاني[3]، يقول :"وإذا عرفت أن إيراد المعنى الواحد على صور مختلفة لا يتأتى إلا في الدلالات العقلية، وهي الانتقال من معنى إلى معنى بسبب علاقة بينهما كلزوم أحدهما الآخر بوجه من الوجوه، ظهر لك أن علم البيان مرجعه اعتبار الملازمات بين المعاني"[4]، ويصر السكاكي على تقاطع البلاغة (أساس علمي البيان والمعاني) مع النحو من جهة، والمنطق(الحد والاستدلال) من جهة أخرى، وهو أمر يقترب من تصور (ديكرو) للعلاقة من خلال عمله على الروابط الحجاجية، ومن جهة المنطق فيصر على تأسيسه على فلسفة النظام العقلي[5]، واهتم بمقامات الإبلاغ ودورها في

---

(1) ينظر الحجاج في الخطابة النبوية / 51-52.

(2) البرهان في وجوه البيان / 87.

(3) ينظر الحجاج في البلاغة النبوية / 55.

(4) مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور/ 330.

(5) ينظر بلاغة الإقناع في المناظرة / 77.

العملية الإقناعية،يقول :" لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، التشكر يباين مقام الشكاية ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار، جميع ذلك معلوم لكل لبيب وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر"[1]. فالقصدية والمقام وحال المتكلم أسس ثابتة في فلسفة السكاكي البلاغية، ويتحدد الخطاب بناء عليهما.

لا يقوم التصوير البياني عند السكاكي على مجرد التخييل، بل إن جوهره استدلالي، ما دام مرجعه اعتبار الملازمات بين المعاني، فالتصوير إذن عملية استدلالية تقوم على الانتقال من المعنى إلى معنى المعنى، أو من الدلالة الوضعية إلى أخرى عقلية، الأولى مطابقة والثانية مستلزمة، وتتم الملازمة بين المعاني من جهتين، جهة الانتقال من الملزوم إلى اللازم وهو المجاز كأن تقول :رعينا غيثا، والمراد لازمه وهو النبت، والثانية من اللازم إلى الملزوم كما في الكناية، كأن تقول طويل النجاد، والمراد طول القامة الذي هو ملزوم طول النجاد[2]، فطالب الصورة البيانية يتوخى المسلك الذي يتوخاه صاحب الاستدلال والاستلزام، وهي ملامح فلسفة السكاكي البلاغية، علاوة على عنصر المقامية والإقناعية.

لم تقتصر ملامح المنهج الحجاجي على هؤلاء العلماء، ولكنها تجلت في علوم كثيرة، أهمها علوم التفسير التي اضطلع المؤلفون فيها بتفسير القرآن الكريم، وبيان حججه، وأصول أحكامه، وكذلك كتب علوم القرآن التي عرضت للجدل

---

(1) مفتاح العلوم/ 168.

(2) ينظر بلاغة الإقناع في المناظرة/ 78.

بوصفه علما من علوم القرآن، كالإتقان للسيوطي والبرهان للزركشي، وكذلك علم أصول الفقه ؛ ولذلك نجد أبا الوليد الباجي يسمي كتابه " المنهاج في ترتيب الحجاج" وهو كتاب فقهي، وكذلك علوم الكلام والفلسفة الإسلامية.

رابعا : الحجاج في الفكري العربي الحديث

لم نجد منهجا جديدا في الحجاج في الفكر العربي المعاصر، فقد اقتصرت أكثر الدراسات والأبحاث على الترجمة والتطبيق، ولكن يمكن لنا تلمس الجدة في بعض أبحاث المحدثين، ولاسيما الذين نظروا إلى الحجاج من زوايا غير لغوية، كالفلسفة والمنطق، وسنفرد الحديث عن أهم رواد الدرس الحجاجي الحديث، وهم:

1. طه عبد الرحمن :

تمتاز نظرية طه عبد الرحمن في الحجاج بالطابع الفلسفي ؛ كونه أستاذ فلسفة اللغة والمنطق، وتجلى ذلك في مؤلفاته إذ كانت المصادر العربية القديمة والغربية القديمة والحديثة ولاسيما الفلسفية منها مرجعا له.

يرى طه عبد الرحمن نظرية الحجاج انطلاقا من صفة الخطابة فـ" الأصل في تكوثر الخطاب هو صفته الحجاجية، بناء على أنه لا خطاب بغير حجاج "[1]، ويرى أن حقيقة الخطاب تبنى على قصد التوجه إلى الآخر وقصد إفهامه، مضافا إليهما قصدان آخران هما :

أ. قصد الإدعاء: ومقتضاه أن المنطوق به لا يكون خطابا حقا حتى يحصل من الناطق الصريح على صريح الاعتقاد لما يقول في نفسه وتمام الاستعداد

(1) اللسان والميزان (التكوثر العقلي) طه عبد الرحمن / 213.

لإقامة الدليل عليه عند الضرورة، ولا يسمى المخاطِب مخاطِبا حتى يكون مستعدا لإقامة الدليل على دعواه.

ب. قصد الاعتراض : ومقتضاه أن المنطوق لا يكون منطوقا حتى يكون للمخاطَب الحق في المطالبة بالدليل على قوله، وهنا يثبت أن الحجاج هو الأصل في الخطاب[1].

ثم يقوم عبد الرحمن بتصنيف الحجاج على ثلاثة أصناف :

أ. الحجاج التجريدي :ونعني به ترتيب صور العبارات بعض النظر عن مضامينها واستعمالاتها.

ب. الحجاج التوجيهي : وهو إقامة الدليل على الدعوى بالبناء على فعل التوجيه الذي يختص به المستدل، علما بأن التوجيه هنا فعل إيصال المستدل لحجته إلى غيره، وهي مقاربة مع نظرية أفعال الكلام التي " جعلت أساس الكلام نابع من مفهومي القصد والفعل".

ت. الحجاج التقويمي:وهو إثبات الدعوى بالاستناد إلى قدرة المستدل على أن يجرد من نفسه ذاتا ثانية ينزلها منزلة المعترض على دعواه، ولا يقف المستدل على فعل إلقاء الحجة على المخاطب، بل يتعدى ذلك إلى النظر في فعل التلقي ؛ باعتباره هو نفس أول متلقٍ لما يلقي، فيبني أدلته أيضا على مقتضى ما يتعين على المستدل له أن يقوم به، مستبقا استفساراته واعتراضاته ومستحضرا مختلف الأجوبة عليها، ومستكشفا إمكانات تقبلها وإقناع المخاطب بها[2].

---

(1) ينظر نفسه / 225-226.

(2) ينظر نفسه / 226-228.

ويضفي عبد الرحمن على الحجاج صفته التداولية، فهو فعالية تداولية جدلية، تداولي لأن طابعه الفكري مقامي اجتماعي، فيأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية وتوجهات ظرفية، وهو جدلي لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البيات البرهانية الضيقة، ولا تبنى فيها الانتقالات على صور القضايا منفردة كما هو شأن البرهان، بل على أساس الصور ومضامينها واستعمالاتها، وأن يطوى في هذه الانتقالات كثيرا من المقدمات والنتائج، وأن يفهم المخاطَب معانيا غير التي نطق به المخاطِب، تعويلا على المجال التداولي المشترك بينهما[1].

ويرى عبد الرحمن أن المناظرة الصورة الحقيقية للحجاج الفلسفي التداولي، لأنه فعالية استدلالية خطابية مبناها على عرض رأي أو الاعتراض عليه، ومرماها إقناع الغير بصواب الرأي المعروض أو ببطلان الرأي المعترض عليه استنادا إلى مواضعات البحث عن الحقيقية الفلسفية ؛ مما يجعل الحجاج الفلسفي بناء مثنويا تقابليا يتواجه فيه عارض ومعترض، يتوجه كل منهما بآليات إقناعية خاصة وحقوق وواجبات محددة بهدف تغيير قناعات الطرف المقابل، ومن ثم فكل خطاب استدلالي يقوم على المقابلة والمفاعلة الموجهة يسمى مناظرة[2].

2. عبد اللّه صولة :

يتردد كثيرا اسم الدكتور عبد الله صولة، ولاسيما بأنه من رواد التصنيف الحجاجي، في كتابه "الحجاج في القرآن" و"في نظرية الحجاج" وكثير من الأبحاث المنشورة في الكتب والمجلات العلمية المعروفة.

---

(1) ينظر في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن / 65.

(2) ينظر نفسه / 66.

ففي مفهوم الحجاج عرض صولة لأشهر النظريات الحجاجية في الفكر الغربي الحديث، ولاسيما (بيرلمان وديكرو) يقول :"للحجاج سبيل ثالثة غير هذه التي تربطه بالخطابة وهي موضع اتهام بكونها مناورة، وغير تلك التي تربطه بالجدل وهو موضع اتهام بالقصور عن الإلمام بكل ما ينشأ في خطاب اللغات الطبيعية من وجوه المحاجات. وقد أخذت هذه السبيل الثالثة في اللحوب شيئاً فشيئاً منذ 1958 تاريخ صدور كتابين* في الحجاج يضعانه في إطار فلسفي عام. ولم يكن أحد من المؤلفين على الأرجح بمطلع على ما كان يصنع الآخر.

ثم إن الحجاج ما فتئ حتى صار بعد ذلك مع (أوسكمبر وزميله ديكرو خاصة) يعالج في إطار لساني محض أو يكاد. وقد حاول "ماير" أن يستثمر الجهود الفلسفية واللسانية المذكورة، في مجال الفلسفة بوضع الحجاج في إطار نظرية أوسع هي نظرية المساءلة (Theorie du questionnement) التي شرع في وضع لبناتها الأولى في الفصل الأخير من كتابه "المنطق والكلام والحجاج" وهو الكتاب الذي نعتمد في عملنا ثم تعمقها في كتاباته اللاحقة"[1]. ورأى صولة أن يقف موقفا وسطا بينهما، فالرأي عنده أن ما كل حجاج بفصل أو بوصل، وليس كل قول حجاج،وليس اللغة بكل وحداتها اللغوية ذات طاقة حجاجية (وهو رأي " ديكرو"و"أنسكومبر") وفوق كل هذا وذاك فإن لطبيعة النص دورا أساسيا في إكساب لغته بعدا حجاجيا أو عدم إكسابها إياه[2]، يقول :"إننا ننطلق من فكرة بديهية جدا وهي أن القرآن خطاب. وكونه خطابا يقتضي أنه إقناع وتأثير "[3].

---

* ويقصد كتابي كل من (تولمن، وبيرلمان وتيتكا).

(1) الحجاج في القرآن/ 20-21.

(2) نفسه / 40.

(3) نفسه / 41.

ويرى أن الحجاج قاسم مشترك بين الجدل والخطابة، و أن الحجاج أوسع من الجدل فكل جدل حجاج وليس كل حجاج جدلاً. فهو القاسم المشترك بين الجدل والخطابة، على سبيل المثال، من حيث إن الجدل والخطابة "قوتان لإنتاج الحجج" كما يقول أرسطو، وإن كان نوع الحجة في الواحد غير نوعها في الآخر. لقد حدت المحاجة أو الحجاج (Argumentation) عموماً بكونها :سلسلة من الأدلة تفضي إلى نتيجة واحدة أو هي الطريقة التي تطرح بها الأدلة. ومجال ذلك الخطابة مع ما بين أنواع هذه الحجج من تداخل وتماس .ومعنى هذا أنه يوجد على الأقل حجاجان: جدلي وخطابي[1].

حاول صولة طمس الهوة الفاصلة بين بلاغة الأسلوب التي يمثلها (جاكبسون وكوهين) و بلاغة الحجاج التي يمثلها (برلمان وتولمين وتتيتكا وديكرو) فكانت كل من البلاغتين في صمم عن الأخرى كما يقول (روبول). فالأولى تلح على البنية والانتظام والنسقية المؤدية إلى نشوء وظيفة الكلام الجمالية، في حين ذهبت الثانية إلى وجوه البصر في الحجة والظفر بها، وحاول دمج البلاغتين معا، متخذا من كلام ابن الأثير مسارا له، إذ يقول في مدار البلاغة على " استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم "[2].

3. محمد العمري:

أطلق العمري على الحجاج تسمية " الخطاب الإقناعي " في كتابه " في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية" تتبع فيه الخطابة العربية في القرن الأول الهجري، معتمدا على الأسس الأرسطية لبلاغة الخطاب

(1) ينظر الحجاج في القرآن/ 17.

(2) ينظر المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد 2/ 64، والحجاج في القرآن / 605- 606.

وخصوصا الحجج والبراهين التي عرضها أرسطو في كتابه " الخطابة"، وركز على المقامات الخطابية بشكل عام، وقسمها على النحو الآتي :

أ. مقام الخطابة الدينية : فقد تطورت الخطابة الدينية بتطور المجتمع الإسلامي، وتقسمت بحسب المستمع، وتنوع الرسالة الموجهة إليه. فإذا كان المستمع خالي الذهن من الرسالة يكون الخطاب تعليميا، وإذا كان متناسيا أو متغافلا يكون الخطاب وعظيا، وإذا كان مخالفا أو معاندا تكون حينئذ المناظرات[1].

ب. مقام الخطابة السياسية : ويندرج ضمنها جميع الخطب أثناء بناء الدولة، أو الصراعات بين الأفرقاء، ويمكن تصنيفها حسب المتحاورين على صنفين، أولهما :الحوار بين الأنداد، والآخر :الحوار بين الراعي والرعية[2].

ت. مقام الخطابة الاجتماعية :وتندرج تحت هذا النوع جميع الخطب التي لا تقع تحت النوعين الآخرين، ومنها خطب التنظيم الاجتماعي التي تعنى بالعلاقات الاجتماعية بين الأفراد وتنظيم الحياة والأملاك والمخاصمات القضائية، وخطب المشاركات الوجدانية، التي يحاول فيها الخطيب استمالة المخاطَب عاطفيا كخطب ندب الموتى.

وقسم صور الحجاج على ثلاثة أقسام[3] :

أ. القياس القائم على الاحتمالات، ومن أدواته التعارض والتضاد والاستقصاء.

---

(1) ينظر في بلاغة الخطاب الإقناعي / 40-50.

(2) ينظر نفسه / 50- 57.

(3) ينظر نفسه / 69 -94.

ب. المثل : وهو قائم على المشابهة بين حالتين متشابهتين بالمقدمات، وينتظر من نتيجة إحداهما أن تكون مشابهة للأخرى.

ت. الشاهد : ويجمع الشواهد القرآنية والشعرية والنثرية.

تطور الدرس الحجاجي قديما في الثقافتين الغربية والعربية، لكنه كان واضحا في الثقافة الغربية القديمة، وممنهجا بشكل أوضح ؛ نتيجة ارتباطه بعلم الكلام والجدل والخطابة والبلاغة، وعانى اضطرابا في بداية نشأته على يد السفسطائيين، الذين ربطوه بالمنفعة الذاتية، وبالجدل ؛ لكون خطابهم مبنيا على الأغاليط الدلالية من خلال التلاعب بالمقدمات والفرضيات والحجج والنتائج، في حين اعتمد أفلاطون في مرحلة متقدمة على منهج المحاورة في سبيل دحض توجهات السفسطائيين، فاعتمد الفلسفة الحقيقية مقابل فلسفة السفسطائيين الخادعة، وجاء أرسطو بفكر ميز فيه بين الجدل والخطابة، وأعطى حرية للمناقشة المتكافئة، وأخذ الإقناع دوره في أفكاره. وفي العصر الحديث تطور الدرس الحجاجي أكثر على يد أعلام وفلاسفة ذهبوا مدارس شتى، وكان في التراث العربي ملامح مهمة للدرس الحجاجي، وكان في الدرس العربي المحدث إسهامات واضحة، ولكننا نستطيع أن ننحى منحى جديدا، نرى فيه الحجاج عبارة عن مثلث، يقع في قاعدته الحجاج الفلسفي، ضلعاه الحجاج التداولي والبلاغي، وكل من الهرم والقاعدة يضطلع بأدوار حجاجية، تلعب دورا تكامليا، عبر أدوات معينة، وسنحاول فيما يلي من الدرس تطبيق هذا المنهج على نص تراثي مهم، نرى فيه قيما حجاجية ثابتة.

تعريف الخطاب :

وكان من واجب استكمال الفائدة أن نعرج على تعريف الخطاب. فقد تعددت تعريفات الخطاب (Discourse) وتنوعت، فابتكر (هاريس) مصطلح الخطاب وعرفه بقوله:إن الخطاب منهج في البحث في أيما مادة مشكلة من عناصر متميزة ومترابطة في امتداد طولي سواء أكانت لغة أم شيئا شبيها باللغة، ومشتمل على

أكثر من جملة أولية، فهي بنية شاملة تشخص الخطاب في جملته، أو أجزاء كبيرة منه،و يعرفه (بنفنست) بأنه "كل تلفظ يفترض متكلمًا ومستمعًا، بحيث يحاول المتكلم التأثير على المستمع بطريقة ما."ويعرفه (تودروف) بأنه "أي منطوق أو فعل كلامي يفترض وجود راوٍ ومستمع وفي نية الراوي التأثير على المستمع بطريقة ما."ويعرف(فوكو) الخطاب بأنه "النصوص والأقوال كما تعطي مجموع كلماتها ونظام بنائها، وبنيتها المنطقية، أو تنظيمها البنائي ."ويعرفه (هارتمان وستورك) أنه "نص محكوم بوحدة كلية واضحة يتألف من صيغ تعبيرية متوالية تصدر عن متحدث فرد يبلغ رسالة ما""[1].

ويقدم أصحاب معجم "دوبوا وآخرون" ثلاثة تحديدات للخطاب، فالخطاب يعني :

1. اللغة في طور العمل، أو اللسان الذي تنجزه ذات معينة، وهو مرادف هنا لمعنى الكلام عند سوسير.
2. الخطاب متتالية الجمل، أو الملفوظ الذي يتعدى الجملة.
3. ويعرف شميدل الخطاب فيقول: يقصد بالخطاب كل لغة متجلية في صورة تواصلية، أو اجتماعية فالخطاب هو لغة التفاعل بين أفراد المجتمع الذين يتواصلون باللغة.

وقريبا من هذه التعريفات تعريف أزنبرج فـ" الخطاب الصورة الأولية للنظام الذي تتجلى فيه اللغة الإنسانية، فحين يتم تواصل (منطوق/ مكتوب) بين كائنات بشرية، فإن ذلك يتجلى في شكل الخطاب، ولأن التواصل البشري اجتماعي، فإن

(1) ينظر معجم تحليل الخطاب، بارتريك شارودو،دومنيك منغنو، ترجمة عبد القادرالمهيري، حمادي صمود / 42-46.

الخطاب في الوقت ذاته الوحدة التي يتحقق فيها نشاط التواصل بوصفه اجتماعيا، فالخطاب إذن وحدة تواصلية أي وحدة ينظم فيها التواصل اللغوي.

ويعرفه كوزيفنيكوفا بقوله " الخطاب مجموعة لفظية تامة وهو الكلام مبنيا كما أنه بالوقت نفسه المجموعة التواصلية الكبرى".

وقال برطينيطو : الخطاب متوالية منسقة من الدلائل اللغوية المنتجة في صورة شخصية من قبل المتكلم ومزودة بغرض تواصلي ووظيفة ثقافية محددة[1].

إن بداية نشوء تحليل الخطاب حينما ذهب العلماء الغربيون نحو تحليل الخطاب في القرن التاسع عشر، وذهبوا في اتجاهين :

1. الاول ويمثل الأعمال التي قام بها (كينيث بايك) وزملاؤه، إذ وجدوا تحليل الخطاب في تطور الحقل الأنثروبولوجي، واعتمدوا في تحليل الخطاب معاني الكلمات على تحليل سياق استعمالها الاجتماعي، ومزجوا بين العوامل اللغوية وغير اللغوية.
2. الاتجاه الآخر : ويمثله (هاريس) إذ قدم تصورا لتحليل الخطاب في ضوء النص المستقل، وفصل اللغة عن كل ملابسات السياق الاجتماعي، وقصر الدراسة على الأبعاد الوصفية. وأرى أن ذلك يعد رجعية في التفكير وهو سبب قصور الدراسات السابقة.

يعد مفهوم الخطاب من القضايا المشكلة في الدرس اللساني ؛ ذلك لحداثة المفهوم، وتنوع مرجعياته إذ يتخذ تسنينه الاصطلاحي تبعًا للحقل الذي ينتمي له، فهنالك الخطاب الأدبي، والاجتماعي، والفكري، والإعلامي، غير أن ما يؤسس لمفهوم الخطاب العلوم التي تعمل على إنشائه، ووضع مبادئه وإجراءاته. ولعل أهم

---

(1) ينظر لغة الخطاب السياسي (دراسة لغوية تطبيقية في ضوء نظرية الاتصال) د. محمود عكاشة / 38-39.

الدراسات المشتركة بين العلوم المختلفة المتصلة بالخطاب، هي الدراسات النفسية اللغوية والاجتماعية اللغوية، وهي تجرى لوضع الأسس التجريبية والنظرية لتحليل الخطاب، وتتصل بتحديد طبيعة العمليات المعرفية المستخدمة في إنتاج الخطاب، وفهمه وتخزينه وإعادة إنتاجه. بالإضافة للقواعد المعرفية العامة. وتستقي كلمة خطاب موضوعيتها من المادة التي تعالجها والسياق الاجتماعي الذي ولدت فيه[1].

(1) ينظر بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل / 7.

الفصل الأول

آليات الحجاج الفلسفية
في خطب ابن نباتة

1

الفصل الأول

آليات الحجاج الفلسفية في خطب ابن نباتة

المبحث الأول : الآليات الحجاجية الفلسفية :

توطئة:

يعتمد هذا الصنف من الحجاج على الوقائع و التجارب السابقة للفرد، التي يسوقها ضمنا في حججه، ويكون بناؤه الحجاجي مرتبا عليها، ويسعى إلى إحداث اتفاق بين الأطراف المتحاورة في جوٍّ من الحرية والمعقولية، وصولا إلى التسليم برأي الآخر بمنأى عن الاعتباطية، وبعيدا عن الإلزام والإذعان اللذين يطبعان الجدل[1].

ينطلق هذا النوع من الحجاج في التمييز بين الاستدلال التحليلي، والاستدلال الديالكتيكي. فالأول مرتبط بالصواب والمنطق، وأما الثاني فينطلق من المقدمات التي تشكل من الآراء المقبولة عموما، والقابلة للصواب، وذلك بهدف استنباط أو قبول أطروحات أخرى. ويشكل معرفة المتكلم بالمتلقي الذي يريد إقناعه شرطا مسبقا لأي فعل حجاجي، ويجب على الباث توقع كيفية تلقي المتلقي رسائله الإقناعية، وأن يندمج هذا التوقع في تصور الرسالة نفسها[2]، فضلا عن ذلك فهي تقدم تصورا عميقا لمستويات حضور الكاتب في مكتوبه، ودرجات ذلك الحضور بوصفه حركة حجاجية يقصد بها مخاطبا آخر ليس حاضرا بالفعل لحظة الكتابة، لكن جميع أبعاده متصورة لدن المؤلف، أو هكذا ينبغي أن تكون، ومن ثم فهذا الكاتب يعمق

---

(1) ينظر الحجاج في الخطابة النبوية / 30.

(2) ينظر تاريخ نظريات الحجاج / 45.

فكرة المستمعين الواردة في البلاغة الكلاسيكية، لكنه يركز على غيابهم المادي فقط. وهذا منهج معاصر يحاول دراسة كل أنواع البراهين والحجج ،وهو عنصر ثراء للنظرية الحجاجية، هذا إذا تم تطعيمها ببعض المعطيات السيميولوجية الهرمنيوطيقية المعاصرة[1].

إن للخطاب الحجاجي تقنياته القائمة في جوهرها على زوج الفصل والوصل الحجاجيين لا النحويين، لكن الخطاب قبل أن يستوي كيانا مشكلا من تقنيات حجاجية يواجه بها المتكلم المخاطب لإيقاع التصديق، فهو منطلقات حجاجية مدارها على مقدمات تؤخذ على أنها مسلمات، يقبل بها الجمهور، واختيار هذه المقدمات وطريقة صياغتها وترتيبها له في حد ذاته قيمة حجاجية، بحيث يبدو الفصل بين درس منطلقات الحجاج ودرس تقنيات الحجاج فصلا متكلفا[2].

فكل حكم يعرضه المتكلم مستندا إلى قيم وحقائق مهمة، وستظل تلك الأحكام عرضة للتساؤل ما لم تدعم بالتقانات الحجاجية الصارمة، ويبقى المتلقي مشككا في قبول احتمالات صدق أو كذب القضية دون تلك التقانات[3].

أولا : منطلقات الحجاج :

ونقصد بها المقدمات التي ينطلق منها الفعل الحجاجي، ويستعملها لتحقيق الإقناع، وتشكل موجهات حجاجية وحاملات للاتفاق ، وهي كالآتي:

1. الوقائع : وتمثل ما هو مشترك بين أشخاص عدة أو بين الناس جميعهم، ولا تكون عرضة للدحض أو الشك وهي نقطة الانطلاق[4]، وتنقسم على

---

(1) ينظر مفهوم الحجاج عند بيرلمان2/ 496.

(2) ينظر في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، د. عبد الله صولة / 23.

(3) ينظر التفكير فلسفيا،كريس هورنر، وامريس ويستاكون، ترجمة د. ليلى الطويل / 229.

(4) ينظر بلاغة الإقناع / 87.

وقائع مشاهدة أو معاينة من ناحية، ووقائع مفترضة من ناحية أخرى، وهذان النوعان من الوقائع قد يفقدان طابعهما الحقائقي لسبب أو لآخر، ولكن من حيث هما وقائع فإنهما يكونان متطابقين مع بنى الواقع التي يسلم بها الجمهور، والتسليم بالواقعة من قبل الفرد ليس إلا تجاوبا منه مع ما يفرض نفسه على جميع الخلق، فالواقع يقتضي إجماعا كونيا[1].

2. الحقائق : وتتعلق بالنظريات العلمية، والتصورات الفلسفية و الدينية المتعالية، وهي أكثر تعقيدا من الوقائع، وتقوم بالربط بين الوقائع، وقد يعمد الخطيب إلى الربط بين الحقائق والوقائع من حيث هي موضوعات متفق عليها ؛ ليحدث موافقة الجمهور على وقائع معينة وغير معلومة، كأن يضاف التيقن من الواقعة (أ) إلى النظرية (س) لإنشاء التيقن من (ب) ومعنى ذلك أن التسليم بالواقعة (أ) وبالنظرية(س) يعني التسليم (ب) .فالعقيدة التي يزودنا بها العلم تصور حقيقة لواقع موجود مستقل، ويرى الواقعي العلمي العلم كشيء يشبه الخريطة، يمكن للخريطة أن تمثل منطقة بدرجات أعلى وأدنى من الدقة، فمثلا لو وجد على الخريطة التقاء ثلاثة شوارع بعد نصف ميل جنوب كنيسة، سيكون موقعا على الأرض حيث ستتلاقى تلك الشوارع بعد المسافة نفسها[2].

3. الافتراضات : وهي وإن كانت مسلمة بها مسبقا شأن الوقائع والحقائق؛ ولكنها لا تخضع للتسليم القوي في هذا الإطار ما لم تشفع بأدلة وأنساق برهانية ثابتة تدعمها، وتحدد بالقياس إلى العادي أو المحتمل، وهما قيمتان تتغيران بتغيير الحالات والأوضاع.

---

(1) ينظر الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته / 308، في نظرية الحجاج / 24.

(2) ينظر التفكير فلسفيا / 189.

4. القيم : وهي عنصر أساس من عناصر الحجاج، ولها دور بارز في العلوم الإنسانية كالقانون والسياسة والفلسفة، ويعتمد عليها في تغيير قناعات السامعين، ودفعهم إلى الفعل المطلوب، وهي على نوعين : قيم مجردة كالعدل والشجاعة والكرم والفداء، ومحسوسة كالوطن وأماكن العبادة، وتخضع لتراتبية هرمية يمثل احترامها والوعي بها من لدن المحاجج عاملين فاعلين في تحقيق الخطاب.

5. الهرميات :فالقيم ليست مطلقة، وإنما خاضعة لهرمية ما، فالجميل والنافع درجات، والهرميات نوعان : مجردة كاعتبار العدل أفضل من النافع، ومادية محسوسة، كاعتبار الإنسان أعلى درجة من الحيوان.ولهرمية القيم أهمية كبيرة في البنية الحجاجية، تكاد تعلو على القيم نفسها، فالقيم وإن كانت تسلم بها جماهير سامعة عدة،فإن درجة تسليمها بها تكون مختلفة من جمهور لآخر، وهو ما يعني أن القيم درجات، وليست كلها في مرتبة واحدة، فترتيب القيم يميز كل جمهور عن الآخر.

6. المواضع أو المعاني : وهي عبارة عن المصنفات المجعولة للاستدلال الجدلي، وهي مخازن للحجج حسب (شيشرون) والأطر الناظمة لها، يذهب إليها الخطيب بعد أن يعتمد على القيم وهرميتها للرفع من درجة إذعان الجمهور، وتنقسم إلى مواضع مشتركة أو مبتذلة، يمكن تطبيقها على علوم مختلفة كالقانون والفيزياء والسياسة، كموضع الأكثر والأقل، ومنها مواضع خاصة على علم بعينه، تكون وقفا على نوع خطابي لا تتعداه إلى غيره، كما أن المواضع تحدد خصائص الأمم والجماعات الفكرية والأدبية،ومن ذلك أفضلية ما هو ثابت وباقٍ وهو موضع كلاسيكي، تقابله أفضلية الأقل والزائل وهو موضع رومنطيقي، وتقسم المواضع على ثلاثة أقسام.

أ. مواضع الكم: وهي مواضع تثبت بأن شيئا ما أفضل من شيء آخر؛ لأسباب كمية، من ذلك مثال أرسطو بأن المال الأكثر أفضل من المال الأقل؛ لأن المال الأكثر كفيل بانجاز حاجات أكثر من تلك التي يوفرها المال الأقل[1]، ويرى أرسطو في الـ(توبيقا) بأن العدل والعفة أفضل من الشجاعة؛ لكون العدل والعفة نافعين دائما، بينما الشجاعة لا تصلح إلا في أوقات معينة، ويمكن أن يكون حديث الرسول الأكرم تحت هذا الباب:" اليد العليا خير من اليد السفلى" فاليد العليا اليد المنفقة واليد السفلى اليد السائلة، وكذلك في قوله تعالى على لسان المشركين: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (سبأ35) إذ جاءت النتيجة (وما نحن بمعذبين) للحجة الأولى (نحن أكثر أموالا وأولادا) التي تعتمد على الكم[2]، وقولنا: " الكل خير من الجزء " إنما يترجم بصيغة التفضيل المسلمة القائلة بأن الكل أكبر من الجزء، ومن هنا جاء تفضيل الديمقراطية لكونها رأي الأغلبية، وتفضيل الحقيقية؛ لكونها تحضى بإجماع الآلهة عند غير الموحدين ومن ثم بإجماع الناس"[3].

ب. مواضع الكيف: وتتعلق بالأهمية التي يكتسبها شيء أو فعل معين مقارنة بأشياء أخرى، فالحق في ذاته يباين كل ما عداه من باطل، وكذلك فالحقيقة التي يعرضها الله(سبحانه) تعادل كل الأباطيل التي يعرضها البشر، ومنها تفضيل القرآن الكريم للقلة على الكثرة اعتمادا

(1) ينظر الحجاج أطره و منطلقاته وتقنياته / 311.

(2) ينظر العوامل الحجاجية في اللغة العربية، د. عز الدين الناجح / 84.

(3) في نظرية الحجاج / 27-28.

على الكيف وهو الإيمان في قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1] (البقرة249).

ت. مواضع أخرى : منها :

1. مواضع الترتيب :التي تقر أفضلية السابق كالقوانين والمبادئ في التفكير على اللاحق كالوقائع التي تنتج عن تطبيق تلك الوقائع، ويمكن أن نعد قوله تعالى : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (الواقعة 8 - 11) تحت هذا الباب، فالسابقون الصنفُ الثالث في العدّ وهم الصنف الأفضل من الأصناف الثلاثة، ووصفُهم بالسبق يقتضي أنهم سابقون أمثالهم من المحسنين الذين عبر عنهم بأصحاب الميمنة فهم سابقون إلى الخير، فالناس لا يتسابقون إلا لمنوال نفيس مرغوب لكل الناس،وأما الشر والضرّ فهم يرغبون عنه.
2. مواضع الموجود : التي تقضي بفضل الموجود والراهن على المحتمل وغير الممكن، وعلى هذا بني المثل الشعبي " عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة".
3. مواضع الجوهر: وتتعلق بما يجسد بشكل أفضل.

كل مدونة يستسقي منها المتكلم مقدماته حجاجه ومعطياته تتطلب انتقاء وتنظيما تكتسب بها فعاليتها الحجاجية، ومناسبتها للجمهور الذي توجه إليه ؛ لأن ضروب المصادقات والموافقات المتاحة للخطيب تمثل معطيات، ولكنها من الاتساع بمكان مما يشترط الانتقاء، بحسب نوعية الجمهور، واختيار هذه المقدمات يخضع بدوره لطريقة العرض، ونجاعة العرض شرط ضروري لنجاح أية محاجة،

---

(1) ينظر العوامل الحجاجية في اللغة العربية / 85.

ويجب الاهتمام بتقنيات العرض، ولا فصل - بحسب بيرلمان - بين الشكل والمضمون، فلا يمكن دراسة البنى الأسلوبية بمعزل عن أهدافها الحجاجية، فالتناغم الشكلي في الخطاب يمكن أن يؤدي دورا حجاجيا، ويجب على المتكلم عدم عرض مقدمات معلومة بشكل مبتذل لدى السامع، وألا يضيع وقت المستمع بكلام معروف، ويعد العرض البطيء للمقدمات من طرائق العرض الحجاجية ؛ لأنه يحرك الانفعالات العاطفية لدى المستمعين، وهذا التوجه عكس الخطاب القرآني، فالسرعة كانت من خصائص الخطاب المكي ؛ استجلابا للعواطف، والإبطاء كان من خصائص الخطاب المدني ؛ لقيامه على الاستدلال في مقارعة بني إسرائيل[1].

إن اختيار هذه المقدمات يخضع لطريقة العرض، علما بأن اختيار عناصر الحجاج وعرضها عمليتان إلى حدّ أنهما تشكلان عملية واحدة، ولكن الاهتمام بتقنيات العرض في الخطابة عُدَّ روحها في بعض المراحل، إذ قصروها على إجادة الكلام والكتابة، وعدوا الخطابة فن التعبير عن الفكرة لا غير، فهي شكل محض وهي فكرة تفصل في الخطابة بين شكلها ومضمونها، لكن بتطور رؤية المعادلة لدى بيرلمان،أقر بأن لا فصل بين الشكل والمضمون في فن الخطابة، وأنه لا يمكن دراسة البنى الأسلوبية بمعزل عن أهدافها الحجاجية، فكل تناغم وإيقاع بين مكونات الخطاب ممكن أن يؤدي دورا حجاجيا من خلال ما يتولد عنه من مرح وإعجاب وحماس لدى جمهور السامعين.

فالمتكلم يرمي في خطابه إلى التأثير على السامع، ويستعمل بذلك أدوات مقننة، يبتعد فيها عن تشتيت المتلقي، وعدم ذكر معلومات معروفة لديه، فمثلا لكي نحصل على نتيجة أن (دوريوس) أحرز تاجا مكافأة له على انتصاره، فإنه ينبغي أن

(1) ينظر الحجاج أطره و منطلقاته وتقنياته / 318.

نكتفي بالقول : لقد انتصر بالألعاب الأولمبية، ولا داعي للقول : في الألعاب الأولمبية يحرز الفائز تاجا[1].

إن من أهم مظاهر كفاءة المحاجج منهجه في بناء خططه القولية،ورؤيته التي يؤسس عليها اختياراته، في تقديم الفرضيات والمقدمات، التي من حقها التقديم في مقام خاص ومع جمهور بعينه، فالجمهور عنصر مهم، ينبغي مراعاة اختلافه في اختيار المقدمات، وينبغي على المحاجج الوعي بالتصورات والأفكار الحاصلة لدى متلقيه، وكذا من معايير نجاعة المحاجج السياق القولي و الإبلاغي الذي يقدم فيه مقدماته، كأنواع الصفات والنعوت والتأكيدات التي يضمنها الخطاب، التي تطلع بدور حجاجي مهم –كما أسلفنا– ويجب على المحاجج التركيز على الأفكار والتصورات الراسخة لدى المتلقي، صحيح أنني ذكرت أنه يجب عليه عدم الإطناب في القضايا المعروفة،ولكن بعض حالات الإطناب يكون معبرا لأبنية حجاجية أخرى وخاصة إذا كان الخطاب شفويا[2].

ويمكن أن يكون ذكر زمان الأحداث ومكانها أو الاستعانة بالألفاظ الخاصة أو العامة ما يثير ذهن المتلقي، فمتى ما كانت الألفاظ خاصة كانت الصورة أكثر حيوية، ومتى ما كانت الألفاظ عامة كانت الصورة باهتة[3]، ويجب التنبه للمقام وعدم استعمال ما يدر بالمؤثرات العكسية والتعمية، ويقدم (بيرلمان وتيتكا) جردا للأشكال التعبيرية التي تطلع بدور حجاجي في عرض المعطيات، وهي موجهات لسانية، وهي أربعة حسب الباحثين :

1. التوجيه الإثباتي، ومن شأنها أن تستعمل في أي حجاج.

---

(1) ينظر نفسه / 319.

(2) ينظر الحجاج في البلاغة العربية / 114-115.

(3) ينظر بلاغة الإقناع في المناظرة / 90.

2. التوجيه الإلزامي : ويتمظهر لغويا من خلال صيغة الأمر.
3. التوجيه الإستفهامي: ولها قيمة حجاجية من خلال أن السؤال يفترض وجود إجماع على وجود ذلك الشيء.
4. التوجيه بالتمني: ومداره على الصيغ التي تحمل تمنيا، ويعبر عن آراء مجموعة ما وأفكارها[1].
5. وهناك صيغ لغوية أخرى ذات أدوار حجاجية كاستعمال الأزمنة للتأثير في السامع، واستعمال الضمائر لتنتيج علاقات مقصودة والتوجيه نحو أحكام مستهدفة.

ثانيا : التقنيات الحجاجية

ونقصد بها الطرائق الموظفة في توجيه الحجاج، وتقسم على طرائق وصل وطرائق فصل، والمقصود بالطرائق أو الحجج الاتصالية تلك التي تقرب بين العناصر المتباينة، ومن أشكالها الحجج شبه المنطقية، والحجج المؤسسة على بنية الواقع، والحجج المؤسسة لبنية الواقع[2]، أما الثانية فالمقصود بها تلك الحجج المستعملة في إحداث القطيعة وإفساد اللحمة بين عناصر تشكل عادة كُلاً لا يتجزأ، وسنعرض فيما يلي من البحث لتلك التقنيات :

1. الطرائق الاتصالية :

وتنقسم على الحجج شبه المنطقية، والحجج المؤسسة على بنية الواقع، والاتصال المؤسس لبنية الواقع.

---

(1) ينظر في نظرية الحجاج / 38.

(2) ينظر الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته/ 324.

الحجج شبه المنطقية، وتقسم على :

1. الحجج شبه المنطقية، التي تعتمد في قوتها الإقناعية على بعض البنى المنطقية ومن قوانينه :

أ. التناقض وعدم الاتفاق ونقصد به وجود قضيتين أحدهما تنفي الأخرى، وعرضهما على الواقع مما يسبب تبني إحداهما وطرح الأخرى، كأن نقول في يوم ممطر : المطر ينزل، أو المطر لا ينزل، فيكون الكشف عن التناقض بين قضيتين لإقصاء إحداهما، مما يؤدي إلى تبني الأخرى. فالتناقض غالبا ما يسهل الكشف عنه، غالبا ما يكون كشف التعارض مثارا للسخرية ؛ لذا عد بيرلمان السخرية والهزء من أهم الأسلحة الحجاجية[1].

يتعلق التناقض بالأنظمة الصورية، ويقصد به وجود قضيتين متنافيتين، وعدم الاتفاق بينهما مجاله حجاجي صرف، وإذا كان التناقض المنطقي يدرك صوريا نظرا لأحادية الدلالة في اللغة الرمزية، ويدرك ضرورة لتعاليه عن الأفراد والظروف، فالملفوظات بما تحيل عليها في اللغة من قضايا قابلة لتأويلات مختلفة، وهذا الاختلاف لا يعني العبث وعدم الانسجام ؛ لأن كل تأويل ينزع نحو اختيار معين يبرره ويقصي بوعي الاختيارات الأخرى ؛ لذلك فعدم الاتفاق في الحجاج مصدره ظروف الخطاب وطبيعة الأشياء موضوع الخطاب، وقرارات المشاركين فيه، والقرار الإنساني محمل دوما بالإمكان والتعدد وعدم التوقع، لكنه على الدوام مبني ومبرر وإلا تحول إلى هزء[2].

---

(1) ينظر الحجاج في البلاغة العربية / 128.

(2) ينظر بلاغة الإقناع في المناظرة/ 92.

ب. التماثل التام والجزئي: ويكون فيه المعرف والمعرف متماثلين لفظا، مما يحملنا على عد اللفظ الثاني على سبيل المجاز، ويمثل بيرلمان لهذا النوع بقوله: المرأة هي المرأة، أو الأب يبقى دائما أبا،وهي عبارات لها قيمتها الحجاجية في مقامات خاصة(1).

فصيغة التماثل ليست إلا طريقة من الطرائق الشكلية التي نتوخاها في تقويم شيء ما تقويما إيجابيا أو سلبيا بوساطة الحشو، كقول القائل: حين أرى ما أرى أفكر فيما أفكر، فنجد اللفظ الثاني يطلع بالحمولة الدلالية شأن التكرار.

أ. الحجج القائمة على العلاقات التبادلية: تقوم على معالجة وضعيتين إحداهما بسبيل من الأخرى معالجة واحدة، وهو مما يدل على أنهما متماثلتان بطريقة غير مباشرة، كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (المطففين 1-3) ففيها حجج عكسية، ودعوة إلى تطبيق قاعدة العدل على وضعيتين متناظرتين، وقوله (ﷺ) :"لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ".

ب. حجج التعدية : تقوم على استنتاج علاقات من خلال توظيف عنصر ثالث، يتم المرور عبره لتأكيد صدق العلاقة بين العنصرين الأول والثاني، كقولنا : عدو عدوي صديقي، أو قولنا : سننتصر لأننا الأقوى، أي الأقوى سينتصر.

(1) ينظر الحجاج في الخطابة النبوية/ 36.

إن من أهم علاقات التعدية ذات الصبغة الحجاجية شبه المنطقية علاقة التضمن، وهي علاقة منطقية تبين لنا أن قضية ما تمثل قضية أخرى، خاصة في الاستدلال القياسي القائم أساسا على التعدية في القياس الخطابي"[1].

2. الحجج شبه المنطقية، التي تعتمد العلاقات الرياضية ، وتقسم على :

أ. إدماج الجزء في الكل أي ما ينطبق على الكل ينطبق على الجزء، من قبيل القاعدة الفقهية في تحريم الخمر " ما أسكر كثيره فقليله حرام".

ب. تقسيم الكل إلى أجزائه المكونة له، ليتسنى للمحاجج توظيف تلك الأجزاء، وتحميلها الشحنة الإقناعية التي كانت لها مجتمعة، وعلى المتكلم عند استعماله لهذا النوع الحرص على أن يكون تعداده للأجزاء شاملا"[2].

الحجج المؤسسة على بنية الواقع :

وهي حجج تستعمل الحجج الشبه منطقية للربط بين أحكام مسلم بها، وأحكام يسعى الخطاب إلى تأسيسها،وتثبيتها وجعلها مقبولة مسلم بها، وذلك بجعل الأحكام المسلم بها عناصر تنتمي إلى كل واحد يجمع بينها، بحيث لا يمكن التسليم بأحدها دون أن يسلم بالآخر، ومن هنا جاء وصفها بكونها حججا اتصالية أو قائمة على الاتصال.

فنحن الآن أمام حال يقدم الحجاج فيه رابطا غير مباشر بين عناصر من الواقع، وهذا يعني أن هذا الرابط ليس معطى مسبقا، وإنما تعود إلى الخطيب المجازفة بتأسيسه، وتقديمه في علاقة ملائمة، كما أنه هو الذي يتحمل فشل هذا الرابط عندما

(1) ينظر تاريخ نظريات الحجاج/ 52.

(2) ينظر الحجاج في البلاغة العربية / 129.

لا تتضح ملاءمته، أي أنه لم يكن رابطا مقنعا، أو أن المتلقي لا يقبل أن تتأسس هذه العلاقة، والرابط يعد جسرا بين العناصر التي يقبلها المتلقي والرأي المقترح؛ لذا فإنه يعيد بناء الأساسات الكاملة للواقع بإظهاره لعلاقات لم تكن نراها بالضرورة"[1]وتقسم على قسمين.

القسم الأول: الحجج المبنية على الاتصال التتابعي، ومن حججه:

1. الحجاج بالوصل السببي: فالعلاقات السببية علاقات حجاجية، ويقوم على الربط بين الأحداث المتتابعة بعلاقات سببية، فهو حجاج يرمي إلى أن يستخلص من حدث ما وقع سببا أحدثه، وأدّى إليه كقولنا: اجتهد فنجح، نجح لأنه اجتهد، ويرمي كذلك إلى التكهن بما سيحدث، مثل: يجتهد وسينجح" إننا نستطيع أن ندافع بالقول: إن هذه الدائرة الاستخباراتية جيدة؛ ذلك أن الجيش الذي تنتمي إليه قد انتصر في جميع المعارك "[2] ومعنى هذا أن الربط السببي يكون في اتجاهين: من السبب إلى النتيجة، ومن النتيجة إلى السبب[3].
2. حجة التبذير: وهي حجة تقوم على الاتصال والتتابع، وإن لم تكن ليعتمد أساسا على السببية، وتمثل في أن نقول - حسب بيرلمان -: بما إننا شرعنا في إنجاز هذا العمل، وضحينا في سبيله، ولو أعرضنا عنه لكان مضيعة للوقت والجهد، لذا علينا إتمامه، وكأن يقول صاحب البنك لعميل أفلس: عسى أن تستقيم الحال ويؤتي المشروع أكله.

---

(1) ينظر الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته/ 329.

(2) تاريخ نظريات الحجاج / 50.

(3) ينظر الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته / 332.

3. حجة الاتجاه : وتتمثل في التحذير من سياسة المراحل التنازلية، كقولنا : والله إذا تنازلت هذه المرة وجب عليك أن تتنازل أكثر في المرة القادمة، اعلم أين ستقف بك سياسة التنازل هذه؟.

والقسم الأخر: الحجج المبنية على الاتصال التواجدي :

1. الحجاج بالشخص وأعماله : فالتداخل قائم بين العمل والخطاب والشخص، ومعرفة الشخص سياق يعين على فهم عمله وعلى عمله وعلى إمكان تقويمه ؛ ولذلك فعلم القضاء والأخلاق يعتمدان مفهومي الإنسان وأعماله من حيث هما مفهومان لا انفصال بينهما، فليس بالإمكان الحكم على أحدهما دون الآخر. فالشخص مجمل المعلوم من أعماله، وبتعبير أدق : "هو العلاقة بين ما ينبغي أن نعتبره جوهر الشخص،وبين أعماله التي هي تجليات ذلك الجوهر"[1].

بالنسبة للشخص الذي يريد الحجاج، فإن ذكر اسم شخص ما بوصفه نموذجا يقتضي قبول القيمة التي يمثلها، فعندما يقول أب لابنه :عندما كان نابليون في سنك كان الأول في صفه، فإنه يقدم نموذجا وغالبا ما يكون هذا النموذج متعاليا في كل شيء، أو على الأقل في سلوكياته الحقيقية، أو المفترضة، ولا نعدم رد الابن على أبيه، إذ قال له : وفي سنك قد أصبح إمبراطورا، فإنه أيضا قد قدم نموذجا[2].

ويمكن أن تلعب النية دورا حجاجيا مهما، من خلال تفسير ما غمض من أعماله،بمساعدة السياق الذي يعيننا على تأويل تلك الأعمال، والقصد والنية تمثل ما توفر لدينا من أفكار وآراء سابقة حول الشخص صاحب العمل،وهكذا فإن اللجوء

(1) نفسه/ 334.

(2) ينظر تاريخ نظريات الحجاج / 54.

إلى القصد أو النية، يمثل مناط الحجاج، فهو يربط العمل بصاحبه، ويعيننا على فهمه وتقويمه، كأن نقول : إن من قتل أباه وتزوج أمه لا يمكن أن يكون إلا مجنونا[1].

2. حجة السلطة : وهي حجج تغذيها هيبة المتكلم ونفوذه وسطوته، فشهادة أي شخص على قضية ما تعتمد على نفوذه ومكانته الاجتماعية، ويمثل هذه الحجة العلماء والفلاسفة والكهنوت والإجماع والرأي العام.وعادة ما تكون حجة السلطة غير وحيدة، وإنما تأتي ساندة لحجج أخرى غيرها ، كما إننا كثيرا ما نعمد إلى الثناء على هذه قبل أن نستعملها حججا في خطابنا.

تتخذ السلطة أي سلطة من نفسها حقيقة متبناة، توجب الطاعة والخضوع محيلة تلك الخطابات إلى خطابات تمترس خلفها، ومن ثم تعمل من خلال ممارسات شعائرية على إكسائها بهالة قدسية تفرض على المتلقي قبول أي فكرة ما استنادا إلى تلك القدسية[2].

وقد تنوعت وجهات النظر بشأن مفهوم السلطة وأدواتها وإجراءاتها وصيغها داخل الخطاب، ودرست موضوعيتها وصلاحيتها ؛ لتكون أداة حجاجية ناجعة، حتى تم التوصل إلى أن موضوعية الحجاج تقتضي عدم الركون إلى حجة السلطة، و تقتضي الاتجاه المباشر إلى تحصيل النتائج والمعارف من خلال الاستدلالات والأقيسة، إلا أنه وفي سياقات محددة يبدو الاحتجاج بالسلطة ناجعا وضروريا، وقد ذُكرت موجهات لضبط الاحتجاج بالسلطة، منها : الكفاءة الفعلية للمحتج، ووقوع الموضوع ضمن حدود خبرته المعرفية، وكذلك الأدلة لابد أن تكون قابلة للبرهنة[3].

---

(1) ينظر الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته / 335.

(2) ينظر أنطقة المحرم / 45.

(3) ينظر التحليل التداولي لخطاب الحجاج النحوي، د. محمد عديل عبد العزيز / 225-226.

3. الاتصال الرمزي : وهو من وجوه الاتصال التواجدي، وقيمة الرمز ودلالته تستمدان مما يوجد من ترابط بين الرامز والمرموز إليه، فالعلاقة بينهما علاقة مشاركة. ويقوم الربط الرمزي من الانتقال من الرمز إلى المرموز، مثلما ينتقل من الصليب إلى المسيحية، ومن العَلَم إلى الوطن، ومن الحاكم إلى الدولة، وما تثيره هذه الرموز من أحاسيس ومشاعر وعواطف دينية.

ولكن يجب على المحاجج أن ينتبه لنوعية المتلقي، فالرمز يؤثر في الذين يقرون بوجود الاتصال بين طرفيه، ولا يؤثر في الذين لا يدركون هذا النوع من الاتصال ؛ لذلك يجب التنبه إلى بيئة المتلقي وثقافته، أي نوع المجتمع الذي صاغ ذلك الرمز" مما يؤكد أن للرموز خصائصها الثقافية والحضارية البالغة الخصوصية"[1].

الاتصال المؤسس لبنية الواقع :

1. الحجاج بالمثل: يؤتى بالمثل لتأكيد الفكرة المطروحة، وفي حالات لا توجد فيها عادة مقدمات، وكذلك الاستشهاد بالمقولات الدينية والأدبية، وتتجلى أهمية التمثيل في قوته الحجاجية المتأتية من قدرته على إبراز تشابه العلاقات، وإن كان مصدرها من مجالات مختلفة " يمكن لنا أن نضرب مثالا من عندنا يعتمد مثال أرسطو عند الحديث عن المثل فإن نقول :زيد الملك جنح للطغيان ؛لأنه طلب أن يكون له حرس خاص، هو قاعدة خاصة يؤتى لدعمها بمثل ملكين سابقين هما عمرو والحارث، فقد طلبا حرسا خاصا وأصبحا بواسطته طاغيتين، في هذه الحالة نحن مررنا من

(1) الحجاج في البلاغة العربية / 131.

حالة خاصة زيد إلى حالة خاصة أيضا هي عمرو والحارث، وهو ما يسميه (بيرلمان) بالحجاج من الخاص إلى الخاص "(1) .

ويلحق بالمثل الاستشهاد بالنصوص ذات القيمة السلطوية على المخاطب، كالمقولات الدينية وكلمات القادة الخالدين في نظر الجماعة المقصودة ؛ لأن قيمة الشخص المعترف بها سلفا من قبل المتلقي، يمكن أن تعد قوة حجاجية مهمة ممكن أن توظف في تحقيق العديد من النتائج،فتكون مهمة المثل برهانية، وتكون مهمة الاستشهاد توضيحية(2).

2. استعمال التمثيل : فهو لم يقم على علاقة تشابه، بل هو "تشابه علاقة" وكون وجه الشبه استدلاليا يمنح المتلقي متعة الاستدلال العقلي كقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾(العنكبوت 41).

ثالثاً: الطرائق الانفصالية (الفصل بين المفاهيم) :

يقتضي الحجاج بالانفصال وجود وحدة بين العناصر، فهي عائدة لمفهوم واحد، واسم واحد ولكن وقع الفصل بينها لأغراض حجاجية، من ذلك توظيف عناصر الربط والوصل والعطف النحوية في الخطاب الحجاجي، وكذلك استعمال جمل اعتراضية تحمل أفكارا معينة مؤكدة أو ناقضة لما قبلها كقولنا مثلا : عن هذا البطل – إن صح أنه بطل – وكذلك استعمال أفعال اليقين (يظن، يشك، يزعم، يتوهم) بهدف الفصل بين عنصرين وتقوية الآخر.

---

(1) الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته/ 337.

(2) الحجاج في البلاغة العربية/ 132.

فتلك التعبيرات وغيرها كثيرا ما تستمد مظهرها الحجاجي من فصلها داخل المفهوم الواحد بين ما هو ظاهري يَسِمَهُ، وما هو حقيقة ليست له، على نحو يصبح المفهوم الواحد منقسما إلى حدين، كأن يقال : إن ملكا يفعل هذه الأفاعيل ليس ملكا. وكثيرا ما يحصل الفصل داخل التعريفات للمفاهيم، فيتم الفصل بين ما يُزعم من تقديم مفهوم حقيقي للمفاهيم، وبين ما هو ظاهري جار به العرف، فيكون الاعتراض عادة على المعنى الظاهر[1].

نستطيع دائما التعرف على المصطلح الدقيق، فمثلا المصطلح (2) في عملية الفصل (العنصر المفضل) يطلق عليه غالبا "التعبير الدقيق" في حين المصطلح (1) يكون مرفقا به أحيانا زيادة مثل (ما يسمى، أو ما يشبه). وقد رفض الفلاسفة (ضد الميتافيزيقية) أو الوضعيون أو النفعيون أو الظاهريون أو الوجوديون، الذين يؤكدون أن الواقع الوحيد هو واقع الحضور، رفضوا الحجاج بالفصل ؛ لأنه على رأيهم يوقعنا بما يسميه (نيتشه) (توهمات العوالم الخفية)[2].

(1) ينظر الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته/ 346.

(2) ينظر تاريخ نظريات الحجاج/ 58.

المبحث الثاني:

تحليل بعض خطب ابن نباتة في ضوء الحجاج الفلسفي

ففي خطبة له في الموت والمعاد يقول:" أيها الناس ما هذه السنة وانتم منتبهون ؟ وما هذه الحيرة وانتم تنظرون ؟ وما هذه الغيبة وانتم حاضرون ؟ وما هذه الحيرة وانتم صاحون ؟ وما هذه الطمأنينة وأنتم مطلوبون ؟ وما هذه الإقامة وأنتم راحلون؟"(1).

كل هذه المقدمات الحجاجية التي عرضها الخطيب تمثل تقديما وبداية للشروع بعملية إلقاء الحجة، وهي حقائق قدمها الخطيب، تحتاج الربط بين وقائع معينة واستنتاج حقائق ثابتة ويوجه تلك الحقائق توجيها استفهاميا، فهو يستفهم استفهاما استنكاريا عن سبب النعاس، وهو لا يقصد النعاس الحقيقي، وإنما المجازي أي ذهاب الانتباه عن حقائق ثابتة في الوجود، وهي كون الإنسان فانيا، إلى زوال، وأن مصيره الموت ، ويستفهم عن سبب حيرة الإنسان واضطرابه، مع أنه منتبه لحقيقة الوجود، وفلسفة الخلق والحياة، ويستفهم عن غيبة الإنسان الروحية والفكرية، على الرغم من حضوره الجسدي، ويستفهم عن سبب سكرة الإنسان وذهاب عقله،مع أنه صاح لم يتناول المسكرات، ويستفهم عن سبب طمأنينة الإنسان،مع أنه مطلوب إلى حساب عسير على ما اقترفه في حياته الدنيا، كل تلك الحقائق التي عرضها، يتبعها بتقانات حجاجية مهمة، يبدأ بالاستنتاج أن من اتصف بالصفات السابقة هم راقدون وغافلون ومذهبو عقولهم، ويجب عليهم الاستيقاظ، والتفكر والاتعاظ والاعتبار.

---

(1) ديوان خطب ابن نباتة، تحقيق ياسر محمد خير المقداد / 139-140.

يبدأ بحجة الترتيب ويوجهها توجيها إثباتيا، ترتيب وقائع الموت عليهم،فيقول :" لقد صدقكم الموت الخبر، وآذنكم بالرحيل وقدمكم جيلا بعد جيل (ثم يستنتج نتيجة ضمنية) فما للقلوب لا تتصدع خشوعا، وما للدموع لا تجري بدل الدموع نجيعا "[1] فيستنتج نتيجة ضمنية بأن القلوب قاسية، إذ لا تجري الدموع خشية.

ثم يعرض بعض الحجج الرمزية، المدعومة بفرضيات الدينية، يقول :" كلا لتردن الصمة الصماء، والداهية الدهياء، المكفهرة الشنعاء،المدلهمة السوداء،التي لا ينادى وليدها، ولا تكذب شهودها " وكلها رموز وكنايات عن يوم القيامة، وأوصاف له.

ثم يعرض بعض الحقائق الدينية المسلم بها عن حال المقصرين يوم القيامة، يقول :" فيا خجل المقصرين من التوبيخ في يوم القيامة، ويا حيرة أولي التفريط من زلزال يوم الطامة، ويا سوء منقلب الظالمين عند حلول الندامة، ويا حسرات الهالكين إذا عاينوا أهل السلامة، ويا هوان المتكبرين إذا حرموا من دار الكرامة "[2] كل تلك المقدمات والحجج جاءت ضمن نسق قولي وغاية إقناعية، وهدف مرجو وهو حث المتلقي على الاتعاظ بما فاته من سنن الأقدمين، وصولا إلى كماله المرجو وطاعة الله وحده وتجنبا لمعاصيه.

وفي خطبة أخرى له في الموت يقول :" يا أيها الناس ما أعظم المصيبة على من فقد قلبا واعيا، وأسرع العقوبة إلى من عدم طرفا باكيا "[3]. استعمل الخطيب هنا مقدمة حجاجية مهمة، وهي القيم، التي تلعب دورا فاعلا في العلوم الإنسانية كافة، فاستعمل قيمة الخشوع لله، وجعل فقدها من أعظم المصائب التي تحل على

---

(1) ديوان خطب ابن نباتة / 140.

(2) نفسه / 141.

(3) نفسه / 143.

الإنسان، وكذا فإن من مستلزمات الخشوع وجود عين باكية،وجعل الخطيب فقدان المحرك والمستلزم عنه بسبب من الخطايا التي يكتسبها المرء،وهي وسيلة دفع إقناعية تحث المتلقي على تجسد فعل الخشوع خوفا من حصول المصيبة التي عرضها.

ثم قدم سببا لحصول النتيجة المتقدمة، وهي فقدان الخشوع، وقدم نتيجة للسبب نفسه، فقال :" لقد غلب على قلوبكم الطبع فتملكها، واستحوذ على نفوسكم الطمع فأهلكها، وأنتم عما يراد بكم غافلون وبخلاف ما قد علمتموه عاملون"[1]، فذكر سببا للنتيجة المتقدمة (فقدان الخشوع) وهو غلب الطبع السيئ على قلوبكم وأعمالكم، وتملكه منها وصيرورة ذلك الطبع ملكة لديهم، واستحواذ الطمع على نفوسكم، ومن ثم إهلاكها نتيجة لذلك الاستحواذ. ثم استعمل حجية أخرى وهي حجية السخرية والاستهانة، عندما ذكر غفلة الإنسان عما يراد به، وأنهم يعملون بخلاف ما يعلمون. ثم استعمل حجة التشبيه التي تعد من الحجج المهمة ؛ لأننا كثيرا ما نصادف أشياء كثيرة، فنجد أنفسنا مضطرين إلى تقويم بعض الأشياء انطلاقا من أشياء أخر " فعندما نقول : خد أحمد كالتفاحة، أو إنه جميل كأدونيس، فإننا نعمل على تشبيه وقائع مع بعضها البعض، بطريقة تبدو أكثر ميلا للبرهنة وإعطاء الحجة منها لمجرد المشابهة، أو المماثلة البسيطة بين الطرفين "[2]، فقال الخطيب :" كأنكم بما قد تحققتموه جاهلون، فلا الوعظ يشفي منكم غليلا، ولا الإنذار يجدُ إلى قلبكم سبيلا "[3] فشبههم بالجهلاء الذين لا ينفع معهم الوعظ والإرشاد، ولا يجد الإنذار ملجأ في قلوبهم، فقلوبهم غلف عما يراد لهم، وغير واعية عما يقال لهم من النصح والتوجيه.

---

(1) ديوان خطب ابن نباتة / 144.

(2) حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي(رضي الله عنه)، د. كمال الزماني / 126 .

(3) ديوان خطب ابن نباتة / 144.

ثم يستعمل حجة أخرى في الخطبة هي حجة التناص، وهي من الحجج المبنية على الاتصال المؤسس لبنية الواقع، يقول :" كلا لتردنّ وشيكا موردا لا صدر لكم عنه... هنالك يبرق البصر، وينزل القدر، ويتحقق الحذر، ويقول الإنسان يومئذ أين المفر، ألا إن الساعة أدهى وأمر "[1]، وهو تناص مع قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ (القيامة 7-10) وتعتمد حجية التناص على إلغاء الحدود الفاصلة بين النص والنصوص " التي يتضمنها منتج النص الجديد، إذ تأتي هذه النصوص متماهية داخل هذا النص، ومذابة فيه، فتفتح آفاقا أخرى عديدة ؛ مما يجعل من النص ملتقى لأكثر من زمن، وأكثر من حدث، وأكثر من دلالة، فيصبح النص غنيا حافلا بالدلالات والمعاني"[2] وهو ما يسمى بتناص النصوص، فالنص ابن النص ابن النص كما يقول الدكتور عبد الله الغذامي[3] فانفتحت الخطبة على نص مهم جدا وهو النص القرآني، واكتسبت الحجية منه، ومثلت تلك النصوص المتناصة حقائق ثابتة،وأدوات استعملها الخطيب في مسار العملية الحجاجية.

ثم استعمل الخطيب حجة أخرى وهي حجة السلطة عندما أراد الدفع باتجاه تخويف المتلقي من يوم القيامة، يوم حساب المرء على ما اقترف من أعمال سيئة، فقدم لها بحقائق وتصورات فلسفية دينية، يقول:" جثيا على الركب، بكيا من فضائح ما سُطِّر في الكتب، ترتج بهم الأرض بأقطارها، وترميهم النار بشرارها، وتعرض الخليقة على جبارها،فيحاسبها بإعلانها وإسرارها، وينبئها باكتسابها في سالف

---

(1) ديوان خطب ابن نباتة / 144.

(2) وظيفة التناص الحجاجية والتأثيرية في مقامات الحريري، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته 4/ 310.

(3) ينظر ثقافة الأسئلة، مقالات في النقد والنظرية / 119.

أعمارها، فإما إلى جنتها وإما إلى نارها "[1] فاستعمل حجية السلطة في قوله: (فيحاسبها) فلا يحاسب إلا من كان ذا سلطة قاهرة متينة، وقد ذكر مستلزمات في (جبارها) فكانت الحجة قوية بقوة الجهة التي مثلتها، وهي سلطة دينية غدتها هيبة صاحبها، ونفوذه، وهي سلطة الخلق والتفضل والحساب. والواقع أنها حجة كثيرة الشيوع في خطابة ابن نباتة، وطاقتها الحجاجية ثابتة، ولكن إذا أراد الخطيب دفعها بخطاب معارض جيء بأحداث تفندها،أو وجهت بسلطة أخرى وفي هذا المقام لا يمكن ؛ لأن سلطة الخالق تمثل أعلى السلطات، بل على العكس من ذلك فإن الخطيب نفسه يتحول إلى سلطة دافعة وواعظة ومتحكمة، آخذا تلك السلطة من قوة السلطة التي استعملها في خطابه[2].

واستعمل الخطيب حجة التناقض في خطبة أخرى له في الموت والمعاد، يقول:"أيها الناس : من أسوأ حالا ممن استعبده هواه، أم من أكسف بالا ممن أبعده مالكه ومولاه، أم من أخسر صفقة ممن باع آخرته بدنياه، أم من أكبر حسرة ممن كانت النار منقلبه ومثواه، فما للغفلة قد شملت قلوبكم، وما للغيرة قد سترت عنكم عيوبكم، وما للطمع قد صغّر عندكم ذنوبكم "[3]. فعرض الخطيب نقيضين من أحوال الناس، من يتقي الله ويسير بهداه، ومن يستعبده هواه، من يكون قريبا من الله منزلا، ومن يشتري ابتغاء مرضاة الله، ومن تخسر صفقته ببيع آخرته بدنياه، فعرض النقيضين، وأصدر الحكم الواضح على المتلقي في كون الصنف الآخر من الأخسرين أعمالا، والصنف الأول من الفائزين، وبذلك يوجه عمل المتلقي، ويقنعه بتبني الطريق الأولى والابتعاد عن الأخرى.

---

(1) ديوان خطب ابن نباتة / 145.

(2) ينظر الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه، د. سامية الدريدي / 235.

(3) ديوان خطب ابن نباتة / 146.

ثم يعرض لحجة من الحجج المبنية على الاتصال التواجدي، وهي حجة الشخص وأعماله، لكن الشخص هنا لم يكن ماديا بل شخصا معنويا، أعماله معروفة لدى المتلقي، يحذر الخطيب الناس منه لقسوة أعماله، ولما تدره على الناس من فضح للعيوب، وكشف للمستور، يقول :"فحتام وإلام وعلام التخلف والمقام، أتطمعون في بقاء الأبد، كلا والواحد الصمد إن الموت بالرَّصدِ، لا يبقي منكم على أحد،فكأن دارت عليكم دوائره، ودهمتكم عساكره، وكشفت لكم سرائره..."(1) فاستعمل الحجاج بالشخص المعنوي (الموت) وأعماله التي تقطع الناس عن حيواتهم، وتهدم لذاتهم، و تسلب منهم المال والبنين، ورغد العيش، وكأن له عساكر تغير على الناس، وتدهمهم في بيوتهم، وتسلبهم أشياءهم الثمينة، بسلب حياتهم، كانت هذه الحجة دامغة في مسار وعظ الناس وتذكيرهم بالحياة الآخرة، التي يجب أن يقدموا لها.إن الصور المصنوعة لشخوص الخطاب الفاعلة تحدد في هذا المقام الأعمال المقدرة والمآلات الممكنة، فكلما كانت صورة الشخص كاملة كان العمل أكمل، وكلما كانت صورة الشخص ناقصة كان العمل أنقص، وهذا التجادل بين الشخص والعمل مأتاه كون الثقافة العربية الإسلامية ثقافة قائمة على سلطة الرجال باعتبارهم حملة حقائق ومخازن تجارب(2).

ولابن نباتة خطبة كاملة بعنوان في الاعتبار المثلات (وهو حجاج بالشخص وأعماله) يدعو الناس فيها إلى الاعتبار بالمثل التي سبقتهم، ابتدأها بقوله:" أيها الناس إن أحلام الغفلات مفصحة بصدق حلول المثلات...أو لم يأتكم نبأ من سلف من الأولين، وما حل بهم عند مخالفة سنن المرسلين، وهم الذين أعارتهم الأيام محاسنها، وأظهرت لهم معادنها، ومهدت لهم النعم مواطنها... فجندوا الجنود،

---

(1) ديوان خطب ابن نباتة / 147.

(2) ينظر الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، د. علي الشبعان / 291-292.

وسحبوا البرود، ورفعوا البنود، وتخيلوا الخلود... وذللوا العباد والبلاد قهرا... ثم بدلوا نعمة الله عليهم كفرا...فشربوا الخمور، وارتكبوا الفجور... جاروا فيما حكموا، وعتوا في البلاد وظلموا... فلم يزالوا كذلك وعلى ذلك حتى اصطلموا، وغيبوا في التراب وأرغموا، فلم تنفعهم الندامة إذا ندموا، كعاد إرم ذات العماد، ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ (١٠) ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ (١١) فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ (الفجر 10-14) "[1]، نلحظ الحركية العالية لحجية النماذج، التي ساقها الخطيب في استمالة المتلقي وقيادة دفة المسيرة الإقناعية حيث يشاء، فالخطيب أراد بالمتلقي أن يتعض من مثل السابقين، وينظر بعيني قلبه كيف فعل ربه بعاد إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد وهي عاد الأولى قوم هود الذين قالوا: من أشد منا قوة؟ وقال لهم نبيهم هود: وزادكم في الخلق بسطة، فقد كان طول الرجل منهم اثني عشر ذراعاً و إرم هي عاد قوم هود ووصفها بأنها ذات عماد، وأنها لم يخلق مثلها في البلاد، وهو وصف لها بالقوة والشدة وفعلا كانوا أقوى الأمم وأشدها، ولازم طول الأجسام أن تكون أعمدة المنازل كأعمدة الخيام من الطول، ما يناسب سكانها في طولهم. ومع هذه القوة والشدة فقد أهلكهم الله الذي هو أشد منهم قوة، و ثمود وهم أصحاب الحجر (مدائن صالح) شمال المدينة النبوية، قوم صالح الذين كانوا أقوياء أشداء، و فرعون صاحب المشانق والقتل والتعذيب إذ كان له أربعة أوتاد، إذا أراد قتل من كفر به وخرج عن طاعته قيد كل يد بوتد ويقتله كما هي المشانق التي وضعها الطغاة الظلمة فيما بعد، ومع تلك الصفات التي منحوا إياها لم يشكروا الله على نعمه، بل على العكس طغوا وأفسدوا، فكان عقابهم هينا على الله القوي العزيز،فاستشرف الخطيب مستقبل المتلقي الذي يريد أن يطغى وينسى الله، عن طريق القياس بمستقبل من طغى من قبله، فكانت المثلات –كما عبر عنها–

---

(1) ديوان خطب ابن نباتة / 294-295 .

حججا للخطيب تسنده في طريقة للإقناع، ولم تكن المثلات ببعيدة عن واقع الحال بل كانت منصهرة به، فقارب بين مجالاتها المختلفة ؛ كي يسهل من الناحية الحجاجية حصول الآثار الإقناعية.

ثم استعمل حجج أخرى في قوله:" أيها الناس : إن أحلام الغفلات مفصحة بصدق حدوث المثلات، وإن الإصرار على التبعات، يؤذن بهجوم مذموم البيات، وإن علينا من الغفلة سِنة لا يوقظ هاجعها... "[1] فاستعمل الحجج التتابعية، بالسبب متبوع بنتيجة، فالغفلة التي يقع فيها الإنسان، ولا يتعظ بما سبقه من الأمثال التي تحكي له ما مر من سبقه وما أصابه، تؤذن بالوقوع بما وقعوا به، فالغفلة سبب، والوقوع بالمثلات نتيجة،والإصرار على التبعات سبب متبوع بنتيجة مفادها أنه يقع تحت وطأة هجوم حوادث الزمان.

ثم يستعمل الحجج القائمة على العلاقات الانفصالية، يقول في الخطبة نفسها:"جاروا بما حكموا، وعتوا البلاد وظلموا، وجاهروا الله بما اجترموا، ولم يبالوا على ما أقدموا، ولا عملوا بما علموا، وظنوا أنهم لن يسلموا، فلم يزالوا كذلك، وعلى ذلك حتى اصطلموا، وغيبوا في التراب وأرغموا ولقد علموا على من قدموا، فلم تنفعهم الندامة إذ ندموا"[2] فاستعمل الحجج القائمة على العلاقات الاتصالية والانفصالية في الوقت نفسه، فاستعمل الحجة الانفصالية في (ظنوا أنهم لن يسلموا) فمع كل المقدمات السابقة والنعيم الذي رزقهم الله به، ولكنهم جاروا في الحكم، وعتوا في البلاد، وعملوا بخلاف ما علمهم الله من خلال رسله، فكان ما ينتظرهم بخلاف ظاهر حياتهم من النعيم والعز الذي رزقوا به، فجاءهم العذاب بغتة وهم لا يشعرون به، وخالف بذلك توقعاتهم. وكانت كل تلك الأفعال التي قاموا بها مسببات

---

(1) ديوان خطب ابن نباتة / 294.

(2) نفسه / 295.

ومقدمات لنتائج حتمية، بأن ندموا على ما اقترفوا من أخطاء. فكان مبدأ الفصل الذي يقوم عليه هذا الضرب من الحجج إنما هو مبدأ القطع بالحقائق الحادثة، التي تحررت من كل زيف، وصفا معدنها من كل كدر، إذ تمايزت عناصرها وبان فيها الحق والباطل، الظاهر من الحقيقة[1].

ومن حقائق المشاهدة العينية التي استعملها الخطيب بوصفها مقدمات حجاجية، في خطبة له في الموت والمعاد، قال :"... ما ولدتم فللتراب، وما بنيتم فللخراب، وما جمعتم فللذهاب، وما عملتم ففي كتاب مدخر ليوم الحساب "[2] فاستعمل حقائق مشاهدة من قبل الجميع، فلا اختلاف بين اثنين أن كل مولود آخره تراب، وكل بنيان آخره خراب، وتلك حقائق ووقائع شاهدها الناس من تداول الأيام، وتعاقبها على الناس، وتلك المدن الخراب التي ورثناها عن سالف الأقوام والأزمان، التي وشت بحال العز والجبروت التي عاينوها.

ثم يقدم حججا أخرى كحجة تقسيم الكل إلى أجزاء، وهي من الحجج شبه المنطقية التي تعتمد على العلاقات الرياضية، يقول :"... ليوم عرض النشور، يوم يكشف عن المستور، ويحصل ما في الصدور، ويقع الحساب على الفتيل والنقير، ففريق في الجنة وفريق في السعير"[3]. لقد اعتمد الخطيب في تقسيمه هذا على حجج مختلفة، منها حجة الرمز (يوم عرض النشور) وهو رمز ليوم القيامة، ولكنه وجه خطابه لمتلق يؤمن بالرمز هذا ، ويقع ضمن فلسفته في الحياة والوجود، وإلا فلا يمكن أن توجه هذا الرمز نحو متلق لا يؤمن باليوم الآخر ؛ ولذا جاءت حجته الرياضية في تقسيم الكل (الناس) على صنفين، صنف في الجنة وصنف في النار،

---

(1) ينظر الحجاج والحقيقة / 316.

(2) ديوان خطب ابن نباتة / 153.

(3) نفسه / 153.

استنادا على متلقي الحجة الأولى، وإلا فلا يمكن لمن لا يؤمن باليوم الآخر ان تحاججه بتقسيم الناس يومئذ؛لأنه لا يؤمن بهذا اليوم أساسا.

ويعرض حجة السبب والنتيجة وحجة الشخص وأعماله في خطبة له كذلك في الموت والمعاد، يقول :" فرحم الله امرأ محض نفسه النصيحة، وجنبها العار والفضيحة، قبل سلوك سبل الأولين،والحصول في جرائد الراحلين، الذين عمروا الدنيا زمانا، واتخذوها أوطانا، واعتقدوا منها أموالا وأعوانا،فأخرجوا منها وحدانا، وزودوا من متاعها أكفانا، وبدلوا بعزها هوانا، ولم يجدوا من خوفها أمانا..."[1] فعرض للسبب الذي يجب على الإنسان إتباعه كي لا يصل إلى نتيجة العار والفضيحة، وهو سلوك سبيل نصح النفس، ومن ثم عرض لحجة الشخص وأعماله، فعرض لنوع من الناس الذين ارتكبوا أعمالا أدت بهم إلى نتائج سيئة، دفعا باتجاه عدم سلوك سبيلهم، وسلوك السبيل المناقض له ؛ كي لا نصل إلى النتيجة التي وصلوا إليها، فالتداخل قائم بين الفعل (عدم نصح النفس) وبين الخطاب وهو خطاب نصح، وبين الشخص (الأولون) وبذلك يتم التحاجج سلبا أو إيجابا بأعمال ذلك الشخص، وصولا إلى إقناع المتلقي بضرورة الابتعاد عن سلوك مسلك المثال السيئ ؛ كيلا نصل إلى نتيجته، والمضي بطريق سلوك الشخص (المثال الحسن) وصولا إلى النتيجة الحسنة التي وصلها.

تكثر الحجة السببية في جل الخطابات المتجهة غاياتها صوب الإقناع، وتتضاعف وتشتد في الخطابات التي يرمي أصحابها إلى البرهنة العقلية، فرد الحقائق إلى أسبابها يتضمن فعلا حجاجيا يجعل تلك الحقائق أمورا متمكنة ومصادرات

---

(1) ديوان خطب ابن نباتة / 156.

راسخة لا تبدل ولا تحول، وإنما تؤخذ مأخذ العقائد الكلية التي تضاف إلى الإيمان بقداسة الخطاب وعلو منزلته[1].

وقد عرض الخطيب لحجة الفصل وحجة التناقض في خطبة أخرى له في الموت والمعاد :" أفيظن ظانٌّ أن الله خلق الخلق ليهمله، أم أبدا العالم ليغفله، كلا ليبعثن من أماته ليسأله عن الرسول ومن أرسله، وعن القرآن ومن أرسله، وعما قطعه عن الحق وشغله وعما اجترحه في دنياه وفعله، وعن الحرام الذي أكله..."[2] عرض الخطيب لفرضيتين متناقضتين، ثم دحض إحداهما وأثبت الأخرى، واصلا بذلك إلى معتقد المتلقي، ومقنعا إياه بضرورة ترك الفرضية التي تركها، واعتناق الأخرى التي قبلها، فعرض لمسألة :هل أن الله خلق الخلق ليهمله؟ وهل من جدوى لهذا الخلق ؟ وهل بدأ العالم كله ليغفله ولا يهتم لأمره- وصولا إلى نتيجة مفادها أن حقيقية الخلق عبثية لا جدوى منها-، ثم قام بالفصل بين الفرضيتين، وإثبات أحدهما بتبيان أنه سبحانه لا يهمل خلقه- وصولا إلى نتيجة مفادها أن حقيقية الخلق غير عبثية - وأنه سيبعث من أماته ليسأله عن الرسول ومن أرسله، ولا يقصد بذلك اسم الرسول ومن أرسله، إنما التصديق بالتعاليم والقيم والنواهي والفرائض والحقوق والواجبات التي جاء بها الرسول، ومعرفة من أرسله معرفة حقة باجتناب معاصيه، وسلوك دروب طاعته،ويسأله عن كتابه الكريم وكيف تدبره، وعن أفعاله التي اجترحها في الحياة الدنيا، وعن حلال الله وحرامه، وقع الفصل في هذه الحجة في اتجاه فلسفي معين،فالظاهر لدى الفلسفات المادية عبثية الخلق، وعدم وجود داع معين لإيجاده، وأن هذه الحياة غير مبنية على محركات نظامية دقيقة، ولكن الباطن

---

(1) ينظر الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل / 284.

(2) ديوان خطب ابن نباتة / 158.

مما لا يعرفونه أن ثمة داعيا لها، وأن كل شيء يسير باتجاه مرسوم له، فما الله غافل عن خلقه، وكل يسير لأجل هو عارف به.

ومن المنطلقات الحجاجية التي استعملها الخطيب مواضع الكيف، التي تستعمل في مقارنة شيء بأشياء أخرى، منها التي استعملها الخطيب في خطبة له أيضا في الموت والمعاد، يقول: " فرحم الله امرأ ذلل للحق قلبا وسمعا، وأسبل على الفائت من زلله دمعا، وقمع بذكر الموت جامح هواه قمعا، ولم يأل في التزود لمعاده جمعا، وكانت الموعظة أشد من السيف في جوارحه وقعا، قبل أن يقتسم جسمه المشيعون ربعا ربعا..."[1] فللموعظة تأثير أعظم من تأثير السيف في جسمه، فالموعظة وإن كانت فعل لساني، ولكنها ذات وقع كبير في نفس من خشع قلبه لله، وذلل جوامح نفسه.

ومن حجية الشخص وأعماله في خطبة له في تصرف الزمان والمعاد: " أيها الناس: أسيموا القلوب في رياض الحِكَم، وأديموا النحيب على ابيضاض اللمم، وأطيلوا الاعتبار بانتقاض النعم، وأجيلوا الأفكار في انقراض الأمم، الذين كانوا قبلكم في الأرض قاطنين، وعلى مهاد الخفض مستوطنين، وبعهود الأيام واثقين... أعدى فيهم الهلاك أعداء الجرب، وأوقعت بهم المنون إيقاع الغضب، وأدَّت إليكم الأيام من أخبارها أنواع العجب، سحبت عليهم الهوج أذيال نقائمها، وحلبت عليهم المنون... فهلم – عباد الله – إلى محاسبة النفوس قبل مواثبة النحوس ... ومعاينة اليوم العبوس"[2] يحاول ابن نباتة كعادته التأثير في نفس المتلقي، من خلال محاولة استنباط وتقريب حال الناس الغافلين عما يحيط بهم، وعن فلسفة الحياة وقدرة الخالق اللامحدودة، ويحاول استشراف مستقبلهم من خلال عرض مستقبل من

(1) ديوان خطب ابن نباتة / 162.

(2) نفسه / 191-192 .

سبقهم من الأمم الذين طغوا في الأرض، وكانوا مستوطنين بسعة العيش ورغده، ووثقوا بحياة فانية، حتى أوقعت بهم المنون.

ربط ابن نباتة بين مصير السابقين الذين تمكنوا من الأرض، ورزقهم الله من طياته، وبين مصير الأمم التي تحاول السير بخطى من سبقها من فقياسه قياس عقلي بامتياز، فالعقل حينئذ ينشغل بالتداعيات والأمثلة والعلامات، لكنه يربط فيما بين منشآته المفهومية، ويرتبها في تسلسل معين، وينظمها كي تكون بعيدة عن التناقض، ويسند بعض دعواه على أخرى ؛ كي يتضح أي حكم ينتج عن أي حكم آخر، أي أن الأبنية المفهومية تنظم في سلسلة من المقدمات والنتائج، بينها علاقات على مستويات متنوعة من اللزوم[1].

ومن الرموز التي استعملها الخطيب في خطبة له في تصرف الزمان والمعاد :" فيا له من موقف ما أكربه، ومشهد ما أصعبه، وطريق ما أشقه، وصراط ما أدقه، وكتاب ما اجمعه، وعقاب ما أفظعه، ومقام ما أطوله، ويوم ما أثقله، وحاكم ما أعدله، وظالم ما أخذله، وسجن ما أكظه، وسجان ما أفظه، لا يرحم من بكى ولا يسمع المشتكى،قد نزع الله الرحمة من قلبه،فالويل كل الويل لمن كان في حزبه"[2].

فقد استعمل الخطيب رموزا كثيرة، منها (حاكم، ظالم، سجن، سجان) وكلها رموز تدل على مرموز بمساعدة قرائن معينة، ولكن شرط قبول المتلقي متوفر في الخطاب المعروض. وجاءت الرموز في سياق حث المتلقي على ترك كل ما يضره ؛ لأن أمامه حاكما عادلا، لا يمكن أن يزل حكمه، ولا يغادر صغيرة أو كبيرة، فالعدل في الحكم رمز لله (سبحانه وتعالى) دليل قوله تعالى :" مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (فصلت46) والظلم رمز للإنسان، دليل قوله

---

(1) ينظر الصلة بين التمثيل والاستنباط، بناصر البعزاتي، ضمن التحاجج طبيعته... / 53 .

(2) ديوان خطب ابن نباتة / 162.

تعالى :" إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا (الأحزاب72) والسجن رمز للنار، والسجان رمز لخازنها. نلحظ أن الرموز التي استعملها الخطيب جاءت في سياق المعارف المشتركة بين المتكلم والمتلقي، فرموزهما مشتركة ؛ لذا وجدت صدا لها وتأثيرا في نفس المتلقي، ودفعت باتجاه معين أراده الخطيب.

وتعد حجة الاتجاه من الحجج المبنية على الاتصال التتابعي، وقد استعملها الخطيب في سياق التحذير من الأعمال التي تتبعها مضاعفات على المرء، يقول في خطبة له في الموت والمعاد :" فبادروا – عباد الله – فكاك رهونكم قبل أن تغلق،وإدراك نفوسكم قبل أن تزهق، وشمروا للعمل قبل أن يقطعكم الفوت "[1] فقد استعمل الخطيب حجة الاتجاه، التي حذرت من التنازل الذي يقع فيه الفرد إذا استعمل سياسة ما، فحذر في هذا السياق من ثقافة الإهمال التي يسير بها بعض الناس، وشبههم بالذي رهن نفسه أو ماله أو أرضه عند أحد ما، فيجب عليه أن يبادر بفك ذلك الرهان، قبل أن يغلق باب التسديد، ومن ثم إدراك النفوس، بالعمل الصالح قبل أن تزهق وتضيع فرصة الاكتساب، ويجب عليهم الجد في العمل قبل أن يقطع الموت فرص العاملين .

ومن الحجج شبه المنطقية التي تعتمد على العلاقات الرياضية، حجة سريان حكم الجزء على الكل، فما ينطبق على الجزء، بطبيعة الحال ينطبق على الكل المكون من أجزاء، يقول في خطبة له في تصرف الزمان والمعاد :" فيا من أُخْرِجَ أبوه من الجنة بذنب واحد، بعد أن كان لها مالكا، كيف تطمع في دخولها بذنوب كالجبال لست لها تاركا... "[2] اعتمد الخطيب قبل أن يبدأ بحجته على حقائق دينية مشتركة

---

(1) ديوان خطب ابن نباتة / 174.

(2) نفسه / 176.

بين مجموعة كبيرة من المتلقين، وهي مسألة إخراج نبي الله آدم من الجنة، وهو ما حكاه الآي الكريم ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (البقرة 35-36) فالعقوبة التي سرت على الذنب الواحد – كما مثل الخطيب– تسري بالضرورة على الذنوب الكبيرة التي تشبه الجبال، مما يقترفه الإنسان، وتخرجه من نعيم الجنة، إلى جحيم النار. ويبدو أن تلك الحجج شبه منطقية لكونها مقنعة في ظاهرها لصبغتها الرياضية الواضحة فحسب، ولكنها لا تعدو كونها شبه منطقية ؛ لأن الأجزاء لا تعبر عن كل الحالات وبدقة عن الكل ؛ لذا يذهب (ليونال بلنجي) إلى أن الأشكال الذي تطرحها هذه الحجة تتعلق بالقيمة الذاتية التي تستند إلى كل جزء من الأجزاء، ويُشبّه علاقة الكل بأجزائه المكونة له بـ"قطعة أثاث ذات أدراج" فقطعة الأثاث هذه يمكن أن تكون مغرية ولكنها تفتقر إلى أدراج جيدة، كأن تكون غير كافية أو في غير مواضعها المناسبة، فقيمة الكل إذن بعيدة فعلا عن أن يمثلها مجموع الأجزاء[1].

وفي خطبة له في تصرف الزمان بأهله والمعاد استعمل حججا كثيرة، يقول :" أين أهل المعاقل المنيعة؟ والمنازل الرفيعة، والأبنية العجيبة، والأقنية الرحيبة ...أين من أطال الأمل ؟ واستعذب المهل، وأرجأ العمل، واستكثر العبيد والخول... مطرت والله من الشتات سحب همّع، وحامت عليهم من الآفات طير وقّع، وعصفت عليهم من الممات ريح زعزع..."[2]. فبدأ حجاجه بمقدمات مثلتها الحقائق المشاهدة، من ذهاب عز ومنعة من سبقنا من جبابرة العصور الآفلة، وسلاطين

---

(1) ينظر الحجاج في الشعر العربي / 207.

(2) ديوان خطب ابن نباتة / 182.

العصور، وهي مقدمات فتحت مجال التفكر لدى المتلقي، وأدرك ألا شيء دائم، وكل نعيم إلى زوال،ومهدت الطريق نحو إقناعه بما يأتي من حديث.

ثم عرض لحجة التتابع السببي، فعرض لسبب يرتكبه الفرد حين يطيل أمله في الحياة، ويستعذب إمهال الله له، ويرجىء العمل الصالح، ويحلو بعينه العبيد والجواري، هذا السبب يؤدي إلى نتيجة مستلزمة، وهي أن الله بعث عليهم عقابه بسحب ممطرة من السماء، وهو تناص ضمني مع ما جاء به الذكر الحكيم ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ (الفرقان 38-40) وحامت فوق رؤوسهم طير وقّع،وهو تناص مع ما جاء به الذكر الحكيم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴾(الفيل 1-5) وأصابتهم ريح زعزع، وهو تناص مع قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾(الأحقاف 24-25)

ومن حجية السلطة التي استعملها الخطيب في خطبة له في الموت :" أشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله والناس إلى كل ناعقة مصيخون، وبكل بائقة مرضخون، وفي كل عمة موجفون، ولكل سفه مقتفون، فأجارهم الله بنبيه صلى الله عليه من الفتن المضلة، وأعزهم بسلطانه بعد الذلة، وحسم بدوائه كل علة، وهيمن بملته على كل ملة "[1]، فحجية السلطة في الأقوال فوق الخطوط المؤشرة واضحة،

(1) ديوان خطب ابن نباتة / 237.

وهي سلطة دينية أخذت قوتها من الموروث الديني المشترك بين المتلقي والمتكلم، أخذت موقعها في التأثير على المتلقي، وسرت في المسار الحجاجي المرسوم لها.

ثم استعمل الحجج القائمة على العلاقات التبادلية، التي تقوم على معالجة وضعيتين إحداهما بسبيل الأخرى " أيها الناس : استدركوا سوابق الحوبات بلواحق التوبات، واغسلوا درن التبعات بسجال العبرات، وأديموا ذكر هادم اللذات في موطن الخلوات"[1] فهي حجج قائمة على علاقات تبادلية عكسية، وهي في الوقت نفسه متماثلة، فلا يتم استدراك الآثام السابقة إلا بالتوبات اللاحقة، ولا يتم غسل درن التبعات وأوساخها إلا بسجال العبرات. ثم استعمل حجة التمثيل في ذكر صفات الموت والتذكير في استحالة الهروب منه فشبهه بالداء الذي لا وجود لدواء له "...الموت المفرق بين الأحياء، الذي أعيا دواؤه كل داء على الأطباء " ثم حذف المشبه به هو الداء.

ومن الحجج القائمة على العلاقات الانفصالية في خطبة له في وفاة الرسول الأكرم :" أتظنون أنكم في الدنيا مخلدون؟، أم تحسبون أنكم من الموت محصنون، ساء ما تتوهمون، هيهات هيهات إنكم إذاً لغرورون، جد والله الرحيل فاحتبقوا زادا كافيا، ووجب السؤال فاعدوا جوابا شافيا ... فكأن قد نعق بكم ناعق الشتات، ودارت عليكم رحى الآفات "[2] فوقع الفصل بين مفهومين ينتميان إلى مفهوم واحد في الأصل، فما هو ظاهري ادعاء الناس أنهم محصنون من الموت، وخالدون في الحياة الدنيا، وجاء الفصل بأدوات (تظنون، تحسبون) ثم جاء القول برد الإدعاء (ساء ما تتوهمون) فهو من التوهم السيئ، والحقيقة هي أن الرحيل بدأ فاحملوا زادكم وهي كناية عن الموت، والزاد كناية عن الأعمال الصالحة، وبعد ذلك وجب

---

(1) نفسه / 238.

(2) ديوان خطب ابن نباتة / 272.

الحساب والسؤال فأعدوا جوابا شافيا. فهذا النوع من الحجج قائم على مبدأ الفصل الوهمي بين الأقضية والتصورات التي كان بينها وصل، قبل أن يجري عليها التحويل ويمارس عليه التبديل، وهو ما يعني أن الحدث الحجاجي حدث مقام على منطق العمل إحداثا إنشاء، وهذا التصور يجعل الحجاج عملا يتجاوز الأبعاد الشكلية الخاوية، ليقيم الوصل بعالم بناء التصورات وتوليد المعارف، وهو ما يصيّر الغاية من الحجاج كامنة فيما يؤول إليه من عوالم ممكنة تتولد عنه وتينع به[1].

ومن الحجاج القائم على الاتصال التواجدي، حجاجه بالشخص وأعماله، فقد طرح مثالا حجاجيا وعرض جملة من أعماله، مستعرضا ما قام به من أعمال سيئة، وما واجهه من عقوبة وسخط إلهيين، دافعا باتجاه العدول عن سلوك ذلك الشخص أو الأشخاص وأعمالهم ؛ كي لا يصل المتلقي إلى النتائج التي وقع بها جراء أعماله، يقول في خطبة له في ذكر الموت :" أيها الناس: تجهزوا فقد ضرب فيكم بوق الرحيل، وبرّزوا فقد قُرِّبَت لكم نوق التحويل، ودعوا التمسك بخدع الأباطيل، والركون إلى التسويف والتعليل، فقد سمعتم ما كرر الله عليكم من قصص أبناء القرى، وما وعظكم به من مصارع من سلف من الورى، مما لا يعترض ذوي البصائر فيه شك ولا مرى، وأنتم معرضون عنه إعراضكم عما يُختلق ويُفترى..."[2]. فعرض الخطيب لمجموعة أشخاص وأقوام، وهم أهل القرى الذين بعث إليهم الأنبياء فكذبوهم، فأرسل عليهم الله عذابا أليما، وقد ذكر القرآن الكريم أحوالهم في آيات كثيرة، منها " ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ

---

(1) ينظر الحجاج والحقيقة / 315.

(2) ديوان خطب ابن نباتة / 218.

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾(الأعراف 96-99) ثم استعمل حجاجية التشبيه في حديثه عن معاينتهم لما أصاب أهل القرى، قال :" كأن ما تعاينون منه أضغاث أحلام الكرى" فشبههم بالنائمين الذين لا يدركون ما يدور حولهم من تقلبات الزمان، وهم لشدة غفلتهم عما ينتظرهم من التدبير الإلهي، يشبهون النائم الذي لا يعرف ما يدور حوله.

ومن مواضع الترتيب التي ذكرها الخطيب في خطبة له يذم فيها الدنيا ويحض فيها على قيام الليل " أيها الناس: إن الدنيا قد أدبرت وآذنت بانقلاع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع، فتزودوا من دار المحال، لدار المآل،وخذوا من الحياة الفانية المنكدة، للحياة الباقية المؤبدة "(1) ذكر الخطيب أفضلية اللاحق على السابق هذه المرة، اللاحق أفضل من السابق ؛ لأن السابق يعد مقدمة للاحق، فالسعادة أو الشقاء الأخروي تابع لأفعال الإنسان في هذه الدنيا، فلا يمكن الحصول على النعم الأخروية من خلال العمل وبذل الجهد في ذلك العالم الآخر نفسه، بحيث يمكن لكل من تمتع أكثر من غيره بقوى جسمانية أو فكرية، أن يتزود أكثر من النعم هناك، أو أن بعض المحتالين، وباستخدام أساليب المكر والخداع، يمكنهم الاستيلاء على ثمار جهود الآخرين هناك، كما توهمه بعض الناس، وان العالم الأخروي عالم مستقل منفصل تماما عن الدنيا.

ومن الحجج القائمة على الاتصال التتابعي، ذكره التتابع المتكون من السبب والنتيجة، يقول في خطبة له في ذكر الموت:" أيها الناس : من استمع لخطوب الأيام ؛ غني عن خُطب الأنام، ومن ارتدع عن ركوب الآثام ؛ رقي أعلى درجات الكرام، ومن قدح بصيرته بزناد الاعتبار ؛ أنارت له ظلم العواقب بمصابيح الاستبصار "(2)

---

(1) ديوان خطب ابن نباتة / 245.

(2) نفسه / 222.

يذكر الخطيب هنا حجة منطقية، مفادها أن كل من استمع لحوادث الزمان، أو عاينها واعتبر من تلك الحوادث، كانت النتيجة بأن أغنته عن خطب الناس التي تعظهم، فقد اكتسب العظة معاينة وليس نقلا ، ومن ردع نفسه عن ارتكاب الآثام، كان ذلك سببا في وصوله إلى أعلى درجات الكرام، ومن لاحت له حوادث الدهر، واعتبر منها وتعلم من نتائجها، أنارت له مبهمات الحوادث، وأعطته خبرة في الحياة تغنيه عن طلب النصح والشورى.ولعل هذا النوع من الحجج السببية يمكننا يطلق عليه بالحجج النافعة / الناجعة، ومدارها على تعبير حدث أو تقويم حقيقة من خلال نجاعة النتائج، وينجز عنها فعل حجاجي يعلو الخطاب المبسوط على الجمهور، مذ يشرع المؤول في التوطيء والتقديم[1].

ومن الحجج القائمة على التناقض ما ذكره في خطبة له في تصريف الزمان والمعاد، يقول :" لقد أنذرتكم الأيام هجومها، وارتكم في غيرتكم محتومها، فبادروا عباد الله وأبواب العمل مفتوحة، وفي ساحات المنهل مندوحة، قبل قطع الوتين، ورجع الأنين، ورشح الجبين، ومعاينة المسلط الأمين، قبل سفه الحليم، ووله اليتيم، وعويل الحريم لنزول الأمر العظيم، قبل أوان الغيبة وهوان الشيبة، وانخراق الهيبة، واستحقاق دار الخيبة"[2] فعرض الخطيب طريقين متناقضين، في نهايتهما نتائج متناقضة بتناقض مسبباتهما، فمن لزم طريق المبادرة والعمل الصالح، كانت نتائج طريقه ثوابا جزيلا، ومن لزم طريق الغفلة كانت نتائجه حسابا وعقابا عسيرين، وعرض نتائج الطريق الثاني السيئة جدا، بما يدفع المتلقي على لزوم الطريق الأول؛ بسبب النتائج الكارثية من لزوم الطريق الثاني.

---

(1) ينظر الحجاج والحقيقة / 286.

(2) ديوان خطب ابن نباتة / 189.

ومن الحجاج بالشخص وأعماله في خطبة في النهي عن الفتنة يقول :" فقد جعلكم الله بالإسلام إخوانا، وأمركم أن تكونوا على البر والتقوى أعوانا، ولا تكونوا من الذين أرجؤا العمل بسوف وحتى بأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى، فقد سمعتم ما وصف الله تعالى به نبيه المختار، وأصحابه الخيرة الأبرار، حين ضرب لهم في كتابه مثلا،وأمركم بإتباعهم قولا وعملا ، فقال عز جلاله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ (الفتح 29) وقد صح عن رسول الله (ص) في الآثار التي لا تجدون لها نقصا، أنه قال : أمتي كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضا، فمتى يشد البنيان من يهدمه، ومتى يكون الإنسان أخا لمن لا يرحمه..."[1] استعمل الخطيب جملة من الحجج في هذه الخطبة، منها حجة السلطة في قوله : وأمركم أن تكونوا على البر والتقوى أعوانا، وهي سلطة دينية،واستعمل الحجج القائمة على العلاقة الانفصالية في قوله : تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى، وهو تناص مع قوله تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾(الحشر 14) "لأنه قد يسأل السائل : كيف ذلك ونحن نراهم متفقين؟ فأجيب بأن ظاهر حالهم حال اجتماع واتحاد وهم في بواطنهم مختلفون فآراؤهم غير متفقة إلا إلفة بينهم ؛ لأن بينهم إحَنًا وعداوات فلا يتعاضدون. والخطاب لغير معيّن لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يحسب ذلك. وهذا تشجيع للمسلمين على قتالهم والاستخفاف بجماعتهم. وفي الآية تربية للمسلمين ليحذروا من التخالف والتدابر ويعلموا أن الأمة لا تكون ذات بأس على أعدائها إلا إذا كانت متفقة الضمائر يرون رأياً متماثلاً في أصول مصالحهما المشتركة، وإن اختلفت في خصوصياتها التي لا تنقض أصول مصالحها، ولا تفرّق جامعتها، وأنه لا يكفي في الاتحاد توافق الأقوال ولا التوافق على الأغراض إلا أن

---

(1) ديوان خطب ابن نباتة / 284- 285.

تكون الضمائر خالصة من الإحن والعداوات. والقلوب: العقول والأفكار، وإطلاق القلب على العقل كثير في اللغة"(1) فهنا حجاج بالشخص وأعماله، وذكر حال المنافقين، فالتناص هنا يطلع بدوره الحجاجي، وعلينا محاكاة النص الأصلي، ونأخذ من حجاجيته ونضفيها على النص الآخر، فالنص الأصلي يتحدث عن المنافقين ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (الحشر 10-13) وذكر بعد ذلك عقاب المنافقين: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (الحشر 15-17) نلحظ المسار الحجاجي الذي مر به النص الأصلي، من ذكر المنافقين، وثم ذكر أحوالهم، وثم النتيجة والحساب الذي وصلوا إليه، وهذا ما نسحبه على نص الخطبة، فهو حجاج بمجموعة من الأشخاص وذكر أعمالهم، والتحذير من السير بطريقهم؛ كي لا نصل إلى نتيجة ما وصلوا إليه. فالحجج الانفصالية قائمة على الفصل بين المفاهيم، فقد قام الخطيب بهدم ثوابت (جميعا) بأداة فصل (تحسبهم) وبناء مفاهيم جديدة (قلوبهم شتى) يدعمها بالبرهان، حتى يحدث العوض ويحصل البدل، وقد وصل علماء الحجاج هذا النوع من الحجج القائم على مبدأ الفصل الوهمي بالزوج الفلسفي الظاهر/ الحقيقة بوصفه زوجا أصيلا في كل عملية فصل مفهومي تتصل به

---

(1) تفسير التحرير والتنوير 28/ 106.

جملة من الأزواج الأخرى إتصالا يراتب بينها مراتبة ينسبها الزمان ويعدل من غلوائها الأوان دواعي ومقامات[1].

وفي طريق الخطيب للنهي عن الفتنة والتحذير منها استشهد بالنص القرآني السابق، وهو نص يبعث على الوحدة، وعدم التفرقة، ونبذ الفتنة، وكذا نص الحديث النبوي الشريف، الذي اطلع بالمهمة نفسها.

وفي خطبة له في الحث على الجهاد، استعمل جملة من الحجج، سبقتها بعض المنطلقات الحجاجية، يقول :" أيها الناس :إن الله أيه بكم فهل أنتم سامعون، وندبكم إلى طاعته فهل انتم إليها مسارعون، وزجركم عن معصيته فهل أنتم عنها راجعون، وساومكم بنفوسكم فهل أنتم لها بائعون "[2] فحجية السلطة في تتجلى في (ندبكم، طاعته، زجركم)، ثم استعمل الحجة السببية في قوله : " وانبت لكم من الحبة سبعمائة فهل أنتم لها زارعون، وأوعد من خالفه عذاب جهنم فما أنتم صانعون؟ " فمن يزرع حبة ينبت الله له سبعمائة جزاء له، وهو تناص مع قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة 261) ثم وعد من خالفه وتعمد عصيانه بنتيجة حتمية مفادها عذاب جهنم.

ثم استعمل حجاجية التناص في معرض حثه على الجهاد، يقول :"...فإنه والله ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا، ولا قعدوا عن صون ذمارهم إلا اضمحلوا " وهو تناص مع خطبة الجهاد للإمام علي(ع) " أُغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ فَوَاللهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إلاَّ ذَلُّوا فَتَوَاكَلْتُمْ وَ تَخَاذَلْتُمْ حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ ٱلْغَارَاتُ وَ مُلِكَتْ

---

(1) ينظر الحجاج والحقيقة / 315-316.

(2) ديوان خطب ابن نباتة / 299.

عَلَيْكُمُ اَلْأَوْطَانُ "[1]ويبدو أن انفتاح ابن نباتة على النص الديني، ولاسيما النص القرآني، لما يمثله من سلطة حجاجية على المتلقي، فهي استراتيجية إقناعية يمارسها المتكلم على المتلقي، ويوظف تلك النصوص في ذلك المسار، وبما أن النص الديني يمثل الرمز الأعلى للمتلقي، فإن الخطيب يستعمله في الفضاء الذي يتحرك فيه خطابه ويعرف ضرورة الرموز المعبرة عن انتماء متلقيه الثقافي، والاجتماعي،فيوظفها بطريقة ذكية تمكن من الإقناع والحمل على الإذعان، على أن الرمز يتخذ أحيانا بعدا ذاتيا خالصا يصنعه المتكلم، ويمنحه مكانة خطيرة في خطابه[2].

وفي خطبة له يحث على الجهاد استعمل الحجج القائمة على الانفصال في قوله :" أجل إن الألسن بالدعاء ناطقة، ولكن القلوب للأهواء موافقة "[3] فالظاهر يختلف عن الباطن، فظاهر الكلام أن ألسنة القوم ناطقة بالدعاء والتوسل، لكن ثمة حقيقة خافية، فقلوبهم متعلقة بحبال الدنيا ساعية وراء زخرفها، وكان نتيجة لهذا التناقض والفصل بين الظاهر والباطن، والخداع الذي مارسوه أن حُجِب دعاؤهم " فالدعاء لذلك محجوب، والرجاء منكوب، والعمل بالرياء مشوب، والحق لإضاعتكم إياه بالباطل مغلوب، فلا رحمة الأطفال ترفق عليها أكبادكم، ولا ألفة الأوطان تحقق عنها جهادكم ". ولعل هذه الصورة من أجلى صور الحجج القائمة على مبدأ الفصل المفهومي ؛ لأنها تتمثل في إقامة الفرق بين ظاهر الحقيقة وباطنها، واعتبار الظاهر مقولة مضللة لا تلمس جوهر المعنى، فالفصل بين وجهي الحقيقة الظاهر والباطن هو فصل يستدعيه المحاج، عارضا وجهات نظر مختلفة، ليقتنع المتلقي في النهاية، ويجعله يستجيب ويطيع، يُسلم ويذعن، فالفصل بين المفاهيم هو

---

(1) نهج البلاغة، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية د. صبحي الصالح / 136.

(2) ينظر الحجاج في الشعر العربي / 237.

(3) ديوان خطب ابن نباتة / 310.

في حقيقة أمره نفي لحاصل مدرك (تأويلات الأثريين) وتشييد لإمكان مطلوب (التأويلات النظرية) تحل محل الأولى تداولا وتبادلا[1].

ثم استعمل المقدمات القائمة على مواقع الكم في قوله :" والله لقد صفت الضمائر من كدر نفاقها، وانكفت السرائر إلى الثقة بخلاتها، لأعذب لكم من الحياة مر مذاقها، ولحكم سيوفكم في قلل الأعداء وأعناقها، ولكن قلة نصركم إياه فقل النصير " فالموضع حدد بسبب المعيار الكمي، فقلة نصرهم بسبب قلة نصرتهم لله.

ثم استعمل الحجج القائمة على العلاقات التابعية في قوله:" وجعلتك كتابة وراء ظهوركم واعتصمتم بغير حبله فكبر عندكم الصغير، وأفشيتم بينكم الفواحش ففشا فيكم التقصير، وحجبتم قلوبكم بالقسوة فلم يصل إليها التحذير"[2] فبسبب من إهمالكم لكتاب الله وتعاليمه، واعتصامكم بغير حبله، كبر عندكم صغار القوم، وأمسك بمقاليد الحكم أشخاص لا يستحقونها، وبسبب من ارتكابكم الفواحش، والذنوب قصرتم بحقوق الله عليكم، وبسبب من تلك الأسباب قست قلوبكم وران عليها ما اقترفتم، فلم يصلكم تحذير الله لكم، ونصحه إياكم.نلحظ الربط بين المقدمات والآليات الحجاجية، فحسن اختيار المعطيات تسهل وظيفة المتكلم بوصفه محاجا، وتجعل تلك الوظيفة مآل الطاعة وتدرك في كيانه غاية الاقتناع ؛ لذلك بنيت المعطيات على قاعدة المشهور المعروف ؛ كي لا يكثر حولها اللغط، ولتعتبر حقائق جاهزة، يستدل عليها لتثبت، لا لتجادل فتبكت، وهذا ما يمنح المحاج قوة يكتسبها من تلك الحقائق ؛ لذلك اشترط علماء الحجاج التوافق بين المقدمات الحجاجية والآليات، وربطوا هذا الترابط والتوافق بنجاعة العمل الحجاجي وتوفق العمل البرهاني[3].

---

(1) ينظر الحجاج والحقيقة / 316.

(2) ديوان خطب ابن نباتة / 310.

(3) ينظر الحجاج والحقيقة / 259.

ومن حجية السلطة ما أورده الخطيب في خطبة له في ذكر الموت :" أسكتهم والله الذي أنطقهم، وأباد الذي خلقهم، ويجمعهم كما فرقهم، يوم يعيد الله العالمين خلقا جديدا، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودا، من تكونون شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾(آل عمران 30) "[1] وهذا تناص مع قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(البقرة 143). فاستعمل مجموعة من السلطات الأولى سلطة الخالق والموجد والمحاسب والرقيب والمعاقب، وكذلك استعمل سلطة النبي محمد (ﷺ) الذي يكون شهيدا على أمته يوم القيامة، فإن للأنبياء سلطة يستمدونها من قداسة مأتاهم ومنبع مجيئهم، فهم صفوة مصطفاة ورهط مختار، يمتازون بقدرات تخرق العادة وتتجاوز الإلف، وهذه الهيئة التي تقدم من خلالها الذاكرة الجمعية الأنبياء، تجعل من ينسلك في مسارهم اعتقادا واعترافا يزكي تلك الصفات ويرسخ تلك الهيئات[2].

وثمة حجة أخرى أوردها الخطيب هي حجة الإجماع في قوله : تكونون شهداء على الناس، وهي تناص مع قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(البقرة 143) واستدل أهل أصول الفقه بهذه الآية على أن إجماع علماء الأمة أي المجتهدين حجة شرعية فيما أجمعوا عليه، ولكن الوجه" أن الآية دالة على حجية إجماع جميع الأمة فيما طريقه النقل للشريعة، وهو المعبر عنه بالتواتر وبما علم من الدين بالضرورة وهو اتفاق المسلمين على نسبة قول أو فعل أو صفة للنبي (ﷺ) مما هو تشريع مؤصل أو بيان مجمل مثل

---

(1) ديوان خطب ابن نباتة / 229.

(2) ينظر الحجاج والحقيقة / 159.

أعداد الصلوات والركعات وصفة الصلاة والحج ومثل نقل القرآن، وهذا من أحوال إثبات الشريعة، به فسرت المجملات وأسست الشريعة، وهذا هو الذي قالوا بكفر جاحد المجمع عليه منه، وهو الذي اعتبر فيه أبو بكر الباقلاني وفاق العوام واعتبر فيه غيره عدد التواتر، وهو الذي يصفه كثير من قدماء الأصوليين بأنه مقدم على الأدلة كلها "[1].

ومن سلطة الدين والعقيدة ما ذكره الخطيب في قوله :" وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله والناس إلى كل ناعقة مصيخون... فأجارهم الله بنبيه صلى الله عليه من الفتن المضلة، وأعزهم بسلطانه من الذلة، وحسم بدوائه كل علة، وهيمن بملته على كل ملة "[2] فالنص القرآني جعل الدين والعقيدة يحضران في جامع البيان سلطتين يوجهان مسار التأويل، ويرسمان مسالكه، إضافة إلى كونهما رافدين مقومين للحجج التي يستدعيها الخطيب[3].

استعمل ابن نباتة مجموعة كبيرة من المقدمات الحجاجية التي مهدت الطريق أمامه لإطلاق حججه، التي بدورها تنوعت بين حجج قائمة على الاتصال وأخرى على الانفصال ومنها شبه منطقية وأخرى مبنية على الواقع.واستعمل حجية التتابع والسلطة والتبادل والتمثيل والنموذج وغيرها كثير، كل تلك الحجج لعبت دورا في إظهار خطابه بصورة متناسقة وموجهة نحو هدف إقناعي معين.

---

(1) ينظر التحرير والتنوير 2/ 19.

(2) ديوان خطب ابن نباتة / 237.

(3) ينظر الحجاج والحقيقة / 161.

الفصل الثاني

الآليات البلاغية الحجاجية في خطب ابن نباتة

2

الفصل الثاني

الآليات البلاغية الحجاجية في خطب ابن نباتة

توطئة:

تُعدُّ المباحث البلاغية من أهم الآليات الحجاجية التي يستعملها الباث ؛ لاستمالة المخاطَب والتأثير فيه ؛ لما تحمله أساليبها من شحنات تأثيرية في نفس المتلقي، ولكن الحجاج ليس علما يوازي البلاغة، بل هو ترسانة من الأساليب والإمكانات اللفظية والأدواتية يتم اقتراضها من البلاغة ؛ خدمة للعملية الإقناعية ؛ لذلك من اليسير الحديث عن اندماج الحجاج بالبلاغة في كثير من الأساليب، ولما كان مجال الحجاج هو المحتمل وغير المؤكد والمتوقع، فكان من مصلحة الخطاب الحجاجي الاعتماد على الأساليب البلاغية والبيانية التي تُظهر المعنى بطريقة أجلى وأوقع في النفس[1].

لم تنفصل البلاغة عن الحجاج عند العلماء العرب، بل حتى في تعريفاتهم، نراهم يوردون للبلاغة وجها حجاجيا، فعندما سئل ابن المقفع عن معنى البلاغة أجاب :" البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة ومنها ما يكون في الحديث ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل"[2]، ومن تعريفات الجاحظ للبلاغة قوله :" وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة

---

(1) ينظر التداولية والحجاج، مدخل ونصوص، صابر حباشة / 50.

(2) البيان والتبيين 1/ 115 -116.

والمعرفة بمواضع الفرصة، ثم قال: ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذ كان الإفصاح أوعر طريقة وربما كان الإضراب عنها صفحا أبلغ في الدرك وأحق بالظفر"[1]، والمتأمل لتعريفات الجاحظ السابقة يقطع الرأي بأن البلاغة عنده هي الحجاج، وكل المباحث التي عرضها إما أن تكون داخلة في صلب الحجاج أو حافة به[2].

ينطلق حديثنا عن أدوار البلاغة الحجاجية من فكرة تفاعل اللغة والفكر، فيعتقد "ريتشاردز" في كتابه فلسفة البلاغة بوجود تفاعل حقيقي بين اللغة والفكر، فلا لغة من دون فكر، ولا فكر من دون لغة، وقد انتقد في هذا الصدد تصور "باركلي" حول فصل الأفكار عن الكلمات المعبر عنها ؛ مما ينتج فصلا بين المعاني الأصلية والمجازية، فينتج عنه تحطيم الحقيقة الشعرية والوظيفة الجمالية للكلمات[3] فلا أفكار دون وجود حاضنات لها تقدمها وتحمل في طياتها بؤرا حجاجية تحاول التأثير في نفس المخاطَب، فللمتكلم طريقتان لتبليغ مقاصده كما يقول الجرجاني (ت471هـ) :" الكلامُ على ضربين : ضربٌ أنتَ تصلُ منه إِلى الغرضِ بدلالةِ اللفظِ وحدَه وذلك إِذا قصدتَ أن تُخبرَ عن زيدٍ مثلاً بالخروجِ على الحقيقة فقلتَ : خرجَ زيدٌ، وبالانطلاقِ عن عمرٍو فقلتَ : عمرٌو منطلِقٌ وعلى هذا القياس، وضربٌ آخرُ أنتَ لا تصلُ منه إِلى الغرضِ بدلالة اللفظِ وحده ولكنْ يدلُّك اللفظُ على معناه الذي يقتضيه موضوعُهُ في اللغُة ثُمَّ تجِدُ لذلك المعنى دَلالةً ثانيةً تصلُ بها إِلى الغرضِ.

---

(1) البيان والتبيين 1/ 88.

(2) ينظر الحجاج عند البلاغيين العرب، علي محمد علي سلمان، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته 1/ 264.

(3) ينظر البلاغة والاستعارة من خلال كتاب فلسفة البلاغة،.أ. رتشاردز، د. سعاد أنقار، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته 2/ 457- 458.

ومدارُ هذا الأمرِ على الكنايةِ والاستعارة والتمثيلِ"[1]، ونجد هذا التصور عن علماء الغرب المحدثين، فيرى "ميار" أن المتكلم يوظف في حديثه ضربين من الخطابات، المصرح به والضمني، فالمصرح به هو الظاهر، أما الضمني فتمثله الإمكانات الهائلة المختلفة في طرح التبليغ، وفي هذا الإطار بالذات يرتبط الحجاج بالبلاغة، فإذا كانت البلاغة أن نفاوض في المسافة، ترتب على ذلك أن تنهض لغويا بما يضمن تحديد أشكال الإقناع والتأثير بحسب مقصد المخاطب ومقتضيات المقام[2].

وثمة معترض يرى بأن دور الأساليب البلاغية يتمظهر في البعد الجمالي فحسب، ولكن الأساليب البلاغية قد يتم عزلها عن سياقها الجمالي الإنشائي ؛ لتؤدي دورا إقناعيا استدلاليا، ويتبين لنا من ذلك أن معظم الأساليب البلاغية تمتلك خاصية التحول لأداء أغراض إقناعية تواصلية، ولإنجاز مقاصد حجاجية ولإفادة أبعاد تداولية[3]. وسنختار فيما يأتي أهم الفنون البلاغية، محاولين استكشاف أبعادها الحجاجية ومن ثم تطبيقها على خطب ابن نباتة:

أولا: الاستعارة

تعد الاستعارة من الآليات الحجاجية المهمة، التي يمارس المتكلم من خلالها التأثير في المتلقي، من خلال فعاليتها في التأثير في الأذهان والأفهام، وهي نوع خاص من الاستدلال العقلاني ومن الفضائل المعرفية والإدراكية، ولها وظيفة مركبة يرتبط فيها العقل بالإحساس،والفكري بالنفسي، تسعى إلى إحداث قطيعة وقلب انتظارات ومفاجأة توقعات، وإعادة النظر في نظام الخطاب،وهي بهذا تسمح في

---

(1) دلائل الإعجاز، تحقيق محمد التنيجي/ 203.

(2) ينظر البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار / 394-395.

(3) ينظر التداولية والحجاج / 50.

الوقت نفسه بالإحساس والتفكير[1]. فتنبه الجرجاني إلى وظيفتها الإقناعية حين قال :" فقد حصل من هذا الباب أن الاسم المستعارَ كلما كان قَدمُه أثبتَ في مكانه، وكان موضعه من الكلام أضَنَّ به، وأشَدَّ محاماةً عليه، وأمنع لك من أن تتركه وترجعَ إلى الظاهر وتصرِّح بالتشبيه،فأمرُ التخييل فيه أقوى،ودعوى المتكلم له أظهر وأتَمُّ"[2].

تمتلك الاستعارة إمكان ضمِّ عدد من التجارب والمعاني والسياقات المتعددة بطريقة لا تتضافر بالثراء نفسه في أنماط بلاغية أخرى، وحظيت بقوة وجاذبية كبيرة عبر العصور ميزتها عن كثير من الأصناف البلاغية الأخرى، يتجلى هذا الموقف عند جابر عصفور إذ يقول:"إن النقد المعاصر أميل ما يكون إلى تفضيل الاستعارة الأصلية على التشبيه من حيث القيمة الفنية ؛ وذلك لما يتحقق في الاستعارة من تفاعل وتداخل في الدلالة على نحو لا يحدث بنفس الثراء في التشبيه ؛ ولما يظهر من قدرة الاستعارة على إدخال عدد كبير من العناصر المتنوعة داخل نسيج التجربة الشعرية"[3] فالشاعر بحسب – جون كوهن – لا يصل إلى مبتغاه إلا إذا ابتعد عن الاستعمال العادي للألفاظ، وأعاد إضفاء معنى على خطابه بفضل استعارة انفعالية، تكون ضرورة لإصلاح فساد الخطاب بالنسبة إلى المعيار الذي يجب أن يخضع له[4].

---

(1) ينظر حجاجية المجاز والاستعارة، حسن مودن، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته 3/ 725-726.

(2) أسرار البلاغة، تحقيق محمد رشيد رضا / 276 .

(3) الصورة الفنية في التراث الفني والبلاغي / 270.

(4) ينظر التمثيل والاستعارة في العلم والشعر والفلسفة، شاييم بيرلمان، ترجمة حمو النقاري، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته 5/ 378.

قد تعلو الاستعارة استعمال ألفاظ حقيقية ؛ ذلك أن المخاطِب لا يلجأ إلى استعمالها إلا لوثوقه بأنها أبلغ من الحقيقة حجاجيا ؛ وهذا ما يرجح تصنيفها ضمن أدوات السلم الحجاجي، فمثلا في قول عروة بن الورد :

ثعالب في الحرب العوان فإن تنج وتَنفرِجِ الجُلّى، فإنّهمُ الأُسْدُ

فاستعارات عروة استعارات حجاجية ؛ لأنه يصف قومه في حالتي السلم والحرب، ولا يمكن أن يصفهم إلا بالوصف الذي يجعلهم في مرتبة أعلى من غيرهم ؛ ولذلك نظر في السمات التي يمكن أن تحقق لهم ذلك، فوجد أنها الدهاء والحيلة في الحرب، والحرص مع الشجاعة في السلم، ومن ثم اختار مستعارا منه وأورده بلفظه في خطابه[1].

وقد انطلق طه عبد الرحمن في بناء نظرته التي سماها " المقاربة التعارضية للاستعارة" فهي نظرية تتمحور حول خرق القوانين الحقيقة وطلب قوانين المجاز، متخذا آليات تخاطبية في ذلك التحليل، انطلق من الافتراضات الآتية[2] :

- **إن القول الاستعاري قول حواري**، وحواريته صفة ذاتية له، ومعنى الحوارية أن تشترك ذوات خطابية متعددة في بناء الكلام، ولما كان القول الاستعاري يتألف من مستويين : مستوى المعنى الحقيقي ومستوى المعنى المجازي، فبالإمكان أن نخصص لكل مستوى مقاما معينا (المقام الخاص بالمعنى الحقيقي) و(المقام الخاص بالمعنى المجازي) وبما أن المعنى الحقيقي ظاهر غير مراد(ظاهر مؤول)، والمعنى المجازي مضمر مراد(مضمر مبلغ)، جاز في المقام الحقيقي أن نميز بين حال الإظهار وحال التأويل، وفي المقام

---

(1) ينظر آليات الحجاج وأدواته،عبد الهادي بن ظافر الشهري، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته1/ 134 .

(2) ينظر اللسان والميزان / 310-313.

المجازي بين حال الإضمار وحال التبليغ، ويستعمل المتكلم كل الذوات الأربع مقلبا فيما بينها قائما بكل أدوارها وصولا إلى إقناع المخاطَب.

- **إن القول الاستعاري قول حجاجي**، وحجاجيته من الصنف التفاعلي نخصه باسم التحاجّ، ويمكن البرهان على الصفة الحجاجية للاستعارة من خلال آليتي الاعتراض والادعاء الحجاجيتين، فمن شروط الادعاء أن يكون المدعي معتقدا بكلامه وصدق قضاياه، وطالبا محاوره بأن يصدق دعواه، ومن شروط الاعتراض الرد على دعوى سابقة، ومطالبة المدعي ببيان صحة قوله، وتظهر هاتان الصفتان في الوظائف الحجاجية للذوات، فالذات المظهِرة وظيفتها تتمظهر بادعاء وجود المعنى الحقيقي للجملة، أي المطابقة بين المستعار منه والمستعار له، أما الذات المؤولة للمستعير فيقوم دورها الحجاجي في الاعتراض على وجود المعنى الحقيقي للجملة وإنكار المطابقة بين المستعار منه والمستعار له. أما على مستوى المعنى المجازي فالذات المضمرة من ذوات المستعير تدعي وجود المعنى المجازي للجملة، بينما تدعي الذات المبلغة عدم وجود المعنى المجازي للجملة.

- **إن القول الاستعاري قول عملي**، وصفته العملية تلازم ظاهره البياني والتخييلي، وتظهر هذه الصفة من ارتكاز الاستعارة على المستعار منه، سواء أصرح به أم لم يصرح، وغالبا ما يقترن هذا الطرف فيها، حاليا أو مقاميا، بنسق من القيم العليا، إذ ينزل منزلة الشاهد الأمثل والدليل الأفضل، فتكون الاستعارة أدعى من الحقيقة ؛ لتحريك همة المستمع إلى الاقتناع بها والالتزام بقيمتها. لكن أرسطو وبيرلمان اتفقوا على عدم الإسراف في الاستعارات الحجاجية ؛ كي لا تسبب نفورا وارتيابا عند المتلقي، وتخرج من كونها استعارة حجاجية إلى استعارة شعرية[1].

---

(1) ينظر اللغة والخطاب، عمر أوكان/ 131.

حفلت خطب ابن نباتة باستعارات كثيرة، اطلعت بدور حجاجي مهم، وساهمت في دفع العملية الإقناعية، وأعطى ابن نباتة زخما عاليا لمتلقيه، من خلال إخفاء المستعار ؛ ليعطي للفكر دوره الحقيقي في التخيل وبناء صورة تتكامل تدريجيا بالتعاون مع المنتج. ففي خطبة له في ذم الدنيا، يحاول التأثير في النفوس وحملها على الزهد بالدنيا، والانتباه للدار الآخرة كونها الدار الباقية، حرص ابن نباتة على تصوير خطوب الدنيا كساحة حرب تقرع فيها الطبول آذنة ليوم الرحيل، يقول :"أيها الناس :أصيخوا بأسماع القلوب ،لقراع الخطوب،تسمعوا له دويا في انتهاب الأعمار، وتجدوه مليا بأخراب الديار، وفيا بتحقيق الحذار، جليا في كرور الليل والنهار، أو ما في غير الأيام وسير الأنام، ما دلَّ ذوي الأفهام على نقص التمام...بلى والله، لقد ران على القلوب مكتسبها، وهان على النفوس منقلبها حتى تخيلت الإقامة في دار الظعن،وأملت السلامة في دار المحن... وكأن قد أسمعها الموت صريف أنيابه، وجرعها ذعاف شرابه، فأيتم ولدانه، وأيم نسوانها، وأوحش أوطانها، وأهدى إلى المقابر أبدانها "[1]، نحلظ أن استعارات ابن نباتة قد أحدثت جوا مخيفا ومرعبا ؛ للتأثير في عقلية المتلقي للوصول إلى الغاية أو النتيجة المرجاة من الخطاب، وهي زهد الناس في هذه الحياة، فقدم الحجج الكافية لهذه النتيجة بطريقة بلاغية آخذا بعين الاعتبار المتلقي، فاستعمل استعارات متعددة منها "أصيخوا بأسماع القلوب لقراع الخطوب" و" أَصاخ لهُ يصِيخُ إِصاخة استمع وأنصت لصوت"[2] فشبه القلوب بالشيء الذي له أعضاء سمعية، تكون حجة عليها ثم شبه خطوب الدنيا وحوادثها بالسيوف التي يحدث قراعها دويا في الحروب والمنازلات،والقِراعُ والمُقارَعةُ المُضاربةُ بالسيوف، وغيرها وقيل: مضاربة القوم في الحرب، وقد تَقارعُوا، وقَرِيعُك الذي يُقارِعُك وفي حديث عبد الملك وذكر سيف الزبير :" بِهِنَّ فُلُولٌ من قِراعِ

---

(1) ديوان خطب ابن نباتة / 266 .

(2) لسان العرب، ابن منظور (ت711هـ) مادة (صيخ) 3/ 35 .

الكَتائِبِ أي قتال الجيوش ومحاربتها"[1] ولكن قراع الخطوب يشبه كذلك قراع السيوف كون نتائجهما تتشابه، وهي ما ذكرها الخطيب من" انتهاب الأعمار، أخراب الديار" نلحظ حوارية الاستعارة بين طرفي الخطاب، وقدم الخطيب باستعاراته صورة تخييلية جديدة، تثير الخوف في نفس المتلقي وتنقذه من الغفلة التي وقع فيها ؛ ذلك أن الاستعارة بوصفها مجازا، تقوم على الجمع بين شيئين أو فكرتين، انطلاقا من علاقة المشابهة بينهما ؛ لتقديم فكرة جديدة أو صورة مبتكرة، تدخل في عملية التخييل والإقناع ؛ لأنها عند " قدمائنا العرب المتنورين ليست فقط زخرفا، أو نقشا لتزيين الكلام، ولكنها فن لغوي تداولي يعطي للقول قوته الدلالية، و"إصابته النفسية تأثيرا، وانفعالا واستحسانا "[2].

وبعد أن قدم الخطيب حججه ونتائجه، قام بذكر الأسباب التي تؤدي بالناس إلى عدم الانتباه، والغفلة مما يحيط بهم والسبب هو ما ذكره القرآن الكريم، ثم اقتبسه "ران على النفوس مكتسبها " فالتناص حصل مع قوله تعالى :" كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" (المطففين14)، و التناص من الوسائل الحجاجية المهمة، فيكسب القول حجية تدفع نحو إقناع المتلقي والتأثير فيه تبعا للنص المتناص معه وتفاعلا مع السياق الذي ورد فيه ، فيتم إنزاله منزله، والرَّيْن الصَّدأُ الذي يعلو السيفَ والمِرآة، ورَانَ الثوبُ رَيْناً تَطَبَّعَ والرَّيْنُ كالصدأ يَغْشى القلب، ورَانَ الذَّنْبُ على قلبه يَرِينُ رَيْناً ورُيُوناً غلب عليه وغطاه، فالاستعمال المجازي في الغشاوة التي تصيب الإنسان نتيجة أعماله السيئة، التي تغطي قلبه حتى هان على النفوس منقلبها و تخيلت الإقامة في دار الظعن،وأملت السلامة في دار المحن وهذه نتائج حتمية لمن تغطي الذنوب قلبه، فيأمن للدار الدنيا وهي دار المحن والشدائد.

---

(1) نفسه (قرع)8/ 262 .

(2) حجاجية الصورة الفنية في الخطاب الحربي، محمد عمران / 67.

لقد لعبت الاستعارة دورا محوريا في عملية الإقناع من خلال تجميد المعاني الحقيقية، وحذف المشبه به، وأعطت حرية كبيرة للمتلقي من أجل بناء الحدث الكلامي، بما يملكه من معارف وثقافات، وأظهرت الوجه المخيف للحياة الدنيا، والصراع فيها بين هوى النفس وخطأ رأيها المتكرر وبين الواقع الذي يجب أن تنتبه إليه، هذا الواقع الذي جسده الخطيب بحرفية عالية جدا، دافعا باتجاه حجاجي مفاده إقناع المتلقي بضرورة الابتعاد عن الذنوب وتجنب المعاصي.

ومن استعارات ابن نباتة في خطبته في الحث على الجهاد :" أيها الناس إن الله أيه بكم فهل أنتم سامعون؟ وندبكم إلى طاعته فهل أنتم إليها مسارعون، وزجركم عن معصيته فهل أنتم عنها راجعون، وساومكم بنفوسكم فهل لها أنتم بائعون، وجعل أثمانها جنته فهل أنتم إليها نازعون، وأنبت لكم من الحبة سبعمائة فهل أنتم لها زارعون..."[1] هنا استعمل الخطيب لوحة بلاغية عالية، تنوعت فنون البلاغة فيها من المجاز والاستعارة التصريحية، خدمة لغرض أساس وهو حث الناس ودفعهم نحو الجهاد، والتأثير في نفوسهم. فاستعمل استعارات من قبيل "وساومكم بنفوسكم فهل لها أنتم بائعون، وجعل أثمانها جنته فهل أنتم إليها نازعون" فشبه النفوس بالبضاعة، لكن عملية البيع والشراء هنا تختلف عن عمليات البيع والشراء، فهي عملية ربحها أكيد ومضمون، فاشتغلت الاستعارة على القصد من وراء الخطاب وهو الحث على الجهاد، وما يتبعه من أذى محتمل، فقدمت الضمان والنتيجة لذلك الهلاك المحتمل، كونه تم وفق عملية مساومة بين المرء وربه، يحصل بموجبها على ثمن غال جدا، وهو الجنة، فدفعت تلك الاستعارة بالعملية الإقناعية باتجاه القبول بفحوى الخطاب ومراد الخطيب، ثم عاد بعد ذلك ليذكر الجانب الآخر وهو حجاج عكسي لمن خالف، وعزف عن تلك المساومة، وهو العذاب الأليم، وهي مقاربة

(1) ديوان خطب ابن نباتة / 299.

لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(الصف 10-12)، وبعد أن قدم الخطيب المقدمات المطلوبة في سبيل إنجاح عملية الإقناع، وصل إلى الغاية التي يريد أن يصل إليها ووجه المتلقي نحو القبول بها وهي قوله :" فانفروا رحمكم الله، جميعا وثبات، وشنوا على أعدائكم الغارات، وتمسكوا بعصم الأقدام ومعاصم الثبات، واخلصوا في جهاد عدوكم حقائق النيات".

لقد استعار ابن نباتة من عملية المنفعة المتبادلة في الشراء، آخذا بعين الاعتبار المتلقي الإنسان الذي يحكم كل شيء في مفهوم الربح والخسارة، وهي قيم قوية استعملها الخطيب ؛ لأن الاستعارة دائما ما تركز على المستعار منه سواء أصرح به أو لم يصرح، وغالبا ما يقترن هذا الطرف بالقيم العليا، إذ ينزل منزلة الشاهد الأمثل والدليل الأفضل، فتكون الاستعارة بذلك أدعى من الحقيقة ؛ لتحريك همة المستمع إلى الاقتناع بها والالتزام بقيمها[1].

ومن استعاراته في خطبة له في تصريف الزمان وذكر المعاد :"أيها الناس : أكرهوا النفوس على مخالفة الأهواء، وناجزوها في أداء حق الله مناجزة الأعداء، واصبروها في العاجلة على حلول البلاء، تظفروها في الآجلة بطول الرخاء، فإنما أكره المريض على مر الدواء، لما أمل في عاقبته من إزالة الداء، واعلموا أن الدنيا دار معدومة السراء... أين من كان قبلكم من القدماء، من الجبابرة والملوك العظماء، والسادات الأكابر والأمراء، من ذوي الضبنة والضوضاء.... أين من نازع الله رداء الكبرياء...انظروا كيف تقضقضت عليهم الحادثات تقضقض الشعواء،وصرعتهم الأيام بسيف المنية الغلباء، ونزعت عنهم حلل النظارة والبهاء، وألبستهم سرابيل

---

(1) ينظر اللسان والميزان / 312.

الصور الشنعاء..."[1]. غاية الخطبة حث الناس على مجابهة أهواء النفس، وإيفائها حق الله من الواجبات وغيرها، وقد استعار لفظة "ناجزوها"، والمُناجَزَةُ في القتال المُبارزةُ والمقاتلة، وهو أن يَتَبارَزَ الفارسان فيتمارسا حتى يَقْتُلَ كلُّ واحد منهما صاحبه أو يُقْتَلَ أحدهما، فشبه ترويض النفس وحثها على العمل الصالح بمقاتلة الأعداء، فعملت الاستعارة على تكثيف المعنى ؛ ليتلاءم والغرض الذي سيقت إليه، فالاستعارة لا يراد بها المعنى الحقيقي، وإنما معنى أعلى وأقوى، تساق له الألفاظ المُستعارة، ولا يؤدى بغيرها. وثمة استعارة أخرى في قوله :" أين من نازع الله رداء الكبرياء" فشبه الكبرياء بما له رداء، وهي حق لله قال تعالى :﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (الجاثية37)، والكبرياء : الكبر الحق الذي هو كمال الصفات وكمال الوجود، وهي ملك لله على الاختصاص، فنازع أولئك المتكبرون الله في صفاته الخاصة، وحاولوا سلبها، فأعطت الاستعارة أعلى درجات الذم والتقريح، وساهمت في حث المتلقي على الاتعاظ بسنن الأولين، الذين طغوا في الأرض. وثمة استعارة أخرى في قوله :" وصرعتهم الأيام بسيف المنية الغلباء... وألبستهم سرابيل الصور الشنعاء" فشبه المنية بالعدو الذي يمتلك سيفا، ثم حذف المشبه به، وأبقى المشبه، وهي نتيجة للاستعارة والحديث السابق حول المتكبرين الذين نازعوا الله في رداء الكبرياء، وغرهم في الله الغرور، وكانت نهايتهم أن قضت عليهم حوادث الأيام والدهور، وألبستهم ثياب الصور الشنعاء، والصور القرن، وهي دلالة على الذلة والمهانة التي أحاطت بهم بعد عزهم الزائف والمؤقت. لقد خلقت الاستعارة صورا في تقلب الزمان، وزوال النعم على الذين يتكبرون على الله، دافعة بذلك نحو الهدف المراد من الإقناع وهو أن يبتعد الإنسان عن التكبر ويخالف أهواءه، ويكون من عباد الله الصالحين.

---

(1) ديوان خطب ابن نباتة / 202-203.

لقد أعطت الاستعارة هنا مجالا أرحب للعقل في التفكر، من خلال الصور التي أحدثتها، فهي وسيلة عظمى يستطيع من خلالها المتكلمون جمع الأذهان، وربط أشياء ليس لها علاقة من قبل – كما رأينا – فتجمع الأشياء وتستغل الأفكار والمعاني والمشاعر، التي من شأنها أن تخدم الغرض الإقناعي الذي سيقت إليه[1].

ومن استعاراته في خطبة له يذم فيها الدنيا، ويدعو إلى الحذر من غرورها :"أيها الناس فضح الموت الدنيا فازدروها لفضيحتها، ونصحتكم حوادثها فاحذروها لنصيحتها، فكفاكم بها منها منذرا، وبسابقها عن لاحقها مخبرا، أو ما رأيتم إفسادها من أصلحها، وغشها من نصحها، ممن اتخذها أما وظن غطاءها غنما..."[2] فشبه الدنيا بالمرأة سيئة الصيت، ثم حذف المشبه به، وأبقى المشبه، ثم بين أن الموت فضح الدنيا من خلال سلب حياة من اغتر بها، وأبطل مزاعم من غرته ببقائها وديمومتها، ثم طلب بازدرائها واستصغارها واستحقارها نتيجة افتضاح عيوبها، وهي استعارة خدمت الغرض من الحدث الكلامي، ودفعت عملية الإقناع، لاسيما أن لا أبلغ من الابتعاد عن المرأة سيئة الصيت واحتقارها بعد فضح عيوبها، وهو أبلغ وأكثر تأثيرا لو جيء باللفظ الحقيقي، وتكمن فعاليتها هنا بالتناسب مع ما يطلبه السياق " فيظهر التوجه العملي لها في ارتكازها على المستعار منه، إذ تكون بذلك أدعى من الحقيقة ؛ لتحريك همة المخاطب إلى الإقناع، إذ يهدف إلى تغيير المقاييس التي يعتمدها المخاطب في تقويم الواقع والسلوك، وأن يتعرف على ذلك من المخاطِب ؛ ليكون سبب القبول والتسليم، وليس التخييل أو الصنعة اللفظية "[3].

---

(1) ينظر البلاغة والاستعارة 2/ 475.

(2) ديوان خطب ابن نباتة / 33.

(3) استراتيجيات الخطاب/ 496.

ثانيا: التمثيل

وهو من الوسائل الحجاجية المهمة فـ" يقوم المثل في اللغة مقام الاستقراء في المنطق، أو المثل هو استقراء بلاغي، والمثل حجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتهما، ويراد استنتاج نهاية إحديهما بالنظر إلى نهاية مماثلتها "[1]، وهو طريقة حجاجية تعلو قيمتها على مفهوم المشابهة المستهلك، إذ لا يرتبط التمثيل بعلاقة المشابهة دائما، وإنما بتشابه العلاقة بين أشياء ما كان أن تكون مترابطة[2]. فلقد تنبه الفلاسفة للتمثيل وعدوه ضروريا لكل فيلسوف حتى وإن كان بدرجة تفكير عقلانية ديكارت ؛ لأنه بالنسبة للفيلسوف ليس مجرد ترويج عن النفس، بل هو ما به يصور الفيلسوف حجاجه وما إليه ينتهي استدلاله، ومما لا شك فيه أن حجاج الفيلسوف ليس مطلوبا منه الانتهاء إلى صور جبرية، بل إن أكثر الكتاب معارضة لاستعمال اللغة المجازية يبحثون عن تمثيلاتهم عن طريق إيقاظ صيغ تنتمي إلى اللغة العامية، وتكون في أصلها ذات دلالة استعارية أو عن طريق تطوير لفظ موضوع وضعا ثانيا وكأنه السبيل الوحيد للتبليغ[3].

وفي التراث البلاغي العربي كان للتمثيل الصبغة الحجاجية المهمة والأساسية، فالجرجاني يدرج التشبيه الضمني ضمن الآليات الحجاجية، ضمن التمثيل، وتتحدد في ضوئه قناعات المتلقي، ويمارس دورا إقناعيا عاليا يؤثر في النفوس ويحثها على القبول بمقاصد المتكلم، على اختلاف المقامات الكلامية، والأغراض القصدية، يقول :" واعلم أنّ مما اتفق العقلاءُ عليه، أن التمثيل إذا جاءَ في أعقاب المعاني، أو بَرَزَتْ هي باختصار في مَعرِضه، ونُقِلت عن صُوَرها الأصلية إلى

---

(1) في بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري / 82 .

(2) ينظر عندما نتواصل نتغير / 91 .

(3) ينظر التمثيل والاستعارة في العلم والشعر... 5/ 379.

صورته، كساها أُبّهةً، وكَسَبها مَنْقَبةً، ورفع من أقدارها، وشَبَّ من نارها، وضاعف قُواها في تحريك النُّفوس لها، ودعا القُلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابةً وكلَفاً، وقَسَر الطِّباع على أن تُعطيها محبّة وشَغَفاً، فإن كان مدحاً، كان أبْهَى وأفخم، وأنبلَ في النفوسَ وأعظم، وأهزَّ للعِطْف، وأسْرع للإلف، وأجلب للفَرح، وأغلب على المُمْتَدَح، وأوجب شفاعة للمادح، وأقضى له بغُرِّ المواهب المنائح، وأسْيَرَ على الألسن وأذكرَ، وأولى بأن تَعْلَقه القلوب وأجدر، وإن كان ذمّاً، كان مسُّهُ أوجعَ، ومِيسَمُه ألذع، ووقعُه أشد، وَحدُّه أحَدّ، وإن كان حِجاباً، كان بُرهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبَيَانه أبْهر، وإن كان افتخاراً، كان شَأْوُه أمدّ، وشَرَفه أجَدّ، ولسانه ألَدّ، وإن كان اعتذاراً، كان إلى القَبُول أقرب، وللقلوب أخْلَب، وللسَّخائم أسلّ، ولغَرْب الغَضَبْ أفلّ، وفي عُقَد العُقود أنْفَث، وعلى حُسن الرجوع أبْعث، وإن كان وعظاً، كان أشْفَى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزَّجر، وأجدر بأن يُجلِّيَ الغَيَاية، ويُبصِّر الغاية، ويُبرئ العليل، ويَشْفِي الغليل"[1].

وقد تعددت التسميات لهذا النوع من الاستدلال، فقد سماه الأصوليون "قياس الفرع على الأصل" ووسمه المتكلمون "قياس الغائب على الشاهد" ودعاه الفلاسفة باسم "قياس التمثيل"، فهو من أوسع الطرق الاستدلالية استعمالا، ومن أشدها تأثيرا في الخطابات الإنسانية[2].

يتكون الاستدلال التمثيلي عن طريق الربط بين العلاقات ونسب التشابهات، وليس للتشابهات أية قيمة عندما لا تسجل تلك العلاقات بينها في نظام الواقع الذي ينطبق فيه التمثيل، فالتعرف الأولي على الوقائع يقتضي ملاحظة ما تشترك فيه مع أخرى معروفة وما تختلف فيه عنها، ثم تتكون في العقل افتراضات حسب التكوين

---

(1) أسرار البلاغة/ 92-96.

(2) ينظر تجديد المنهج في تقويم التراث، طه عبد الرحمن / 174-175 .

المعرفي للفاعل، وتخضع للتمحيص عبر سيرورة من القياس بالمقادير والحساب وتتبع الانتظام في حدوث الوقائع، فيُسقط من خلال التمثيل بعلاقات مستفادة سابقا على مجال مجهول أو يبدع علاقات جديدة من منطلق تشابه ما، ليلعب التمثيل دورا في الابتكار والتدليل والحجاج عبر عمليات التطوير والتمديد التي يسمح بها، ويأخذ دوره في البرهنة – حسب تولمان–[1].

ولا شك أن التمثيل ذو مكانة أساسية في تكوين الأفكار والفرضيات من كل صنف، ولكي ترتقي الأفكار في الوضوح يجب إخضاع نتائج التمثيل إلى اختبار وتقدير بالإعداد، وتقييم تماسكها، فالتشابه قد يخفي تناقضا خفيا، متناقضات متضاربة، فيجب امتحان التمثيل بالنظر في ما إذا كانت الأحكام المتكونة منه مناسبة للوقائع ومنسجمة مع ما هو متوفر من المعرفة العلمية[2].

وقد امتلأ القرآن الكريم بالأمثال، وتفنن في صياغتها بما يتناسب والمعاني المختلفة، وقد عده علماء البلاغة وجها من وجوه إعجازه، وقد عبر عن ذلك بن رشيق القيرواني(ت456هـ) بقوله:" وقد تأتي الأمثال الطوال محكمة إذا تولاها الفصحاء من الناس، فأما ما كان منها في القرآن فقد ضمن الإعجاز، قال الله عز وجل: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾(العنكبوت 41) وقال: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾(الأعراف 176)... ومن الأمثال الطوال قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾(التحريم: 10) "[3].

---

(1) ينظر الصلة بين التمثيل والاستنباط / 28-30 .

(2) ينظر نفسه / 33 .

(3) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد 1/ 281 .

ومن تمثيلات ابن نباتة في خطبة له يحث بها الناس على الجهاد :" أيها الناس اقطعوا بتقوى الله أودية الأعمار، وارفعوا في جهاد عدو الله ألوية الأبرار، واصدعوا بكتاب الله قلوب المنافقين والفجار...وبادروا غفلات الزمان بانتهاز فرصه، فإن الصحة يعتريها المرض، والأطهار تنوبها الحيض"[1] جاء تمثيل ابن نباتة ضمن سياق خطابي موجه، فالغاية التي أرادها الخطيب هي دفع المتلقي، وحثه على الجهاد، ونظرا للقيمة العليا لهذا الحدث وتأثيره على مصائر المسلمين، فكان لا بد له من استعمال تقنيات حجاجية تدفع بهذا الاتجاه، وتخلق الجو الملائم له، وكان من ضمن هذه التقنيات تبيين مدى هشاشة هذه الحياة، وقصرها، وزيف بهائها، فاستعان بتشبيهين نستطيع أن نستنتجهما، فكل صحة يعتريها المرض في النهاية، وهي تشبه الحيوات التي يصاب فيها الإنسان بالوهن بعد القوة، وكذلك استعان بالطهارة التي يتبعها الحيض، وهي قضية معروفة لدى المتلقي، فنستطيع أن نستنتج من هذا التشبيه بأنه أراد أن يوصل للمتلقي بأن حياته فانية، ولا بد لها من زوال، فعليه أن يبادر لبناء داره الباقية ويعمرها بعظيم الأعمال ولاسيما الجهاد.

وتعد حجة التمثيل من الحجج الاتصالية المؤسسة لبنية الواقع، ومنها ما استعمله الخطيب في خطبة له في تصرف الزمان والمعاد :"... كلا ليحصدن الزارع ما زرع، وليزهدن الجامع فيما جمع، وليجدن الصانع غِبَّ ما صنع، وليطولن ندم النادم إن نفع..."[2] أراد الخطيب أن يؤسس لفكرة مفادها أن كل شخص عمل عملا صالحا أو طالحا سيلقى جزاء على عمله، بالثواب أو العقاب، ومن ثم طرح قضية مفروغ منها وهي مسألة الزرع الذي يزرعه الفلاح، فمن زرع زرعا يحصد مثله، ولا يمكن له أن يحصد زرعا من جنس أو نوع آخر، وهذه من الحقائق العلمية الثابتة التي

---

(1) ديوان خطب ابن نباتة / 303.

(2) نفسه / 70.

لا يختلف فيها اثنان، وكذا بالنسبة للصانع فإنه سيجد عاقبة صنعه، سواء حسنة أم سيئة، وهذا الحقائق ساقها في إطار تشبيه حذف أحد طرفيه، والطرف المحذوف هو أعمال الإنسان. فكل إنسان سيجد عملا، وسيجزى به صالحا كان أم طالحا.

ومن تمثيلاته في خطبة له يحث فيها الناس على الجهاد :" واعلموا أنه لا يصلح الجهاد بغير اجتهاد، كما لا يصلح السفر بغير زاد، فقدِّموا مجاهدة القلوب، قبل مشاهدة الحروب،ومغالبة الأهواء، قبل محاربة الأعداء، وبادروا بإصلاح السرائر،فإنها من أنفس العدد والذخائر،وليدفع القاعدون عن المجاهدين بالدعاء"[1]، نلحظ أن ابن نباتة تمثل للجهاد بالسفر الطويل، فأراد أن يربط نتيجة السفر الناقص بنتيجة الجهاد الناقص، فالسفر الناقص الذي لم يستعد له المسافر بأهم أدواته، وهو الزاد الذي يعينه على سفر، يؤدي إلى هلاك المسافر لا محال، من تشابه المقدمات، نستنتج ونستشرف حقيقة مستقبلية مفادها أن المجاهد إذا لم يك مجتهدا في دينه محاربا لأهوائه، مغالبا لشهواته، تاركا لنفاق القلوب، مصلحا لسريرته، التي تعد من أنفس المؤن التي يجلبها معه إلى ساحات الجهاد، سيكون جهاده ناقصا، ويؤدي إلى الهلاك، وهو هلاك فعلي، يخسر فيه الفرد دنياه وآخرته إذا لم يعد من المجاهدين، وهو هلاك يختلف عن الهلاك إذا كان المرء مجاهدا حقيقيا؛ لأنه حينئذ يكون في عالم آخر حيا يرزق مع الشهداء والصالحين.

لم يك تمثيل ابن نباتة السابق تمثيلا اعتباطيا، بل كان حركة استباقية، واستشرافا مستقبليا، لما يحص بالمستقبل، بعد القياس السابق للمتشابه، دفع العملية الإقناعية إلى الأمام، وأثبت حجية قوله، وزاد من درجة اعتقاد المتلقي بكلامه ، فالتمثيل ليس مجرد تسجيل للمظاهر المستكشفة بالإدراك المقصود أو بالصدفة، أو مجرد إسقاط لفائدة محصلة على واقعة طارئة، بل هو حيوية تسري في إدراكنا

---

(1) ديوان خطب ابن نباتة/ 300 .

لمكونات المحيط جملة، وهو ترجمة لحركة الفكر إلى الأمام أبعد من المعطى. فالفكر لا يستقر عند لحظة التمثيل، بل يبدأ حركة تفاعلية، مصحوبة بالتخمينات وإنشاءات خيالية، وابتكار للأفكار، ونسج ترابط جديد بين الأفكار والمدركات، اعتمادا على الحدس والإيحاءات الفكرية[1].

ومن تمثيلاته في خطبة له يحث بها متقدمي الأعمار على تقوى الله والورع في أعمالهم :" أيها الناس: إن ضياء نهار المشيب في ظلام ليل اللحى والرؤوس، حقَّق عند الفطين قرب انهدام القوى واخترام النفوس، ذلك صباحٌ ما بعده ليلٌ يُنتظر، واجتياح لا ملجأ منه ولا وزر، وضيف على رغم المضيف واغل، وسيف لموصول الحياة فاصل، ونور طالع بأفول النسم، ومنشور بالأشخاص إلى محل الرمم...

فيا معشر الشيوخ هل بعد ابيضاض الزرع إلا حصاده؟ ويا معشر الكهول ما نصَّف من الثمار فقد آن جداده، ويا معشر الشباب كم من زرع أباده قبل البلوغ قُمَّلُه وجراده..."[2]. ابتدأ الخطيب المقطع بأساليب بيانية حملت تكثيفا عاليا، واطلعت بأدوار مركزة، من الاستعارات والكنايات، التي عملت على القياس على دلائل نهايات الأشياء، وما يجب على المرء أن يفعله إذا ظهرت دلالات نهاية حياته الدنيوية، ثم جاء بأسلوب قياس التمثيل حين قاس على ابيضاض الزرع دلالة على أوان حصاده، وما نصّف من ثمار النخيل فقد حان قطافه، وهو قياس على ابيضاض شعر الإنسان دلالة على أوان نهاية عمره، ولكن ينبغي الالتفات إلى قضية مهمة في قياس الخطيب وهي أن الخطيب يقيس على نهاية عمر الزرع وهي نهاية محمودة؛ لأن نهاية عمره مؤذنة بجني الثمار ذات الفائدة الكبيرة على الناس، وكذلك يجب علينا أن ننتبه إلى قصده فإن نهاية عمر الإنسان يجب أن تكون ذات فائدة كبيرة بأن

---

(1) ينظر الصلة بين التمثيل والاستنباط / 34-35.

(2) ديوان خطب ابن نباتة / 115.

تُجنى منها ثمار العمل الصالح، الذي يجنيه الناس وينتفعون به من بعده، وينتفع به هو في حياته الأخرى، فبإعمال الفكر توصلنا إلى غاية الخطيب المضمرة ؛ دليلنا على تلك المقاصد المضمرة قياسه الآخر " ويا معشر الشباب كم من زرع أباده قبل البلوغ قُمَّلُه وجراده" فإنه يقيس على الزرع الذي لم يك يبلغ النضوج والقطاف لكنه يفسد بسبب الآفات التي تصيبه، وكذلك عمر الإنسان الذي يجب أن ينتهي بثمار الأعمال الصالحة، ولكنه يقترف الذنوب والآثام فتفسد ما قدمه. لقد قام التمثيل قياسا مسلما قائما على بنائية الخطاب، فالانتقال من الإجمال إلى التفصيل، ولعل التفصيل يكون مضمرا، يحتاج إلى إعمال الذهن لاكتشافه، ثم تنتقل تلك الموضوعات من الخفاء إلى الظهور بعد عملية الاستنباط، فتتحول من الإدعاء إلى الاعتراض كما هو حال الاستعارة، ومن الإثبات الدعوي إلى الإبطال والعكس بالعكس[1].

ولكن يجب التنبه على قضية مهمة جدا في هذا الإطار وفي تمثيل الخطيب هذا، فالتمثيلات كثرت في مقال الخطيب هذا، وهو أمر غير محمود في مجال التمثيل، فتمثيل الإقناع يختلف عن تمثيل الإبداع، لأن الأخير ممكن أن يطول فيه، ولكن التمثيل في مجال الحجاج لا يحبذ أن يطول، ويجب أن يلتزم بحد معين ، وإلا انقلب ضده، وفقد طاقته الإقناعية، إلا إذا كانت لغاية أن تثبت صحته، فحينئذ يمكن أن يطول، ولكنه قد يتعرض لتجريح المخاطَب[2].

ثالثا: الكناية

تعد الكناية من الآليات الحجاجية المهمة، إذ تطّلع بدور فعال في خدمة العملية التواصلية بين المتخاطبين، يقول الجرجاني :" أما الكنايةُ فإِن السَّببَ في أنْ كانَ للإثباتِ بها مزيّةٌ لا تكونُ للتَّصريح أنَّ كُلَّ عاقِلٍ يعلم - إذا رجعَ إلى نفسهِ - أنَّ

---

(1) ينظر اللسان والميزان / 279 .

(2) ينظر في نظرية الحجاج / 60 .

إثباتَ الصّفةِ بإثباتِ دَليلها وإيجابَها بما هو شاهدٌ في وجودِها آكدُ وأبلغُ في الدَّعوى من أن تجيءَ إليها فتُثبتَها ساذجاً غُفْلاً، وذلك أنّك لا تدَّعي شاهدَ الصّفة ودليلَها إلاّ والأمرُ ظاهرٌ معروفٌ، وبحيثُ لا يُشكُّ فيه ولا يُظَنُّ بالمخبر التجوّزُ والغلط فأوجبتَ له الصُّورةَ التي يُقْطعُ معها بالتَّحيُّر والتردُّد كان أبلغَ لا محالةَ من أنْ تجريَ على الظاهر، فتقولُ : قد جعلتَ تتردَّدُ في أمرِك فأنتَ كمن يقولُ : أخرجُ ولا أخرجُ فيقدِّمُ رجلاً ويؤخِّر أخرى"[1]، فالمتكلم يريد أن يخبر معنى معينا فلا يذكره، بل يدل عليه بذكر لفظ يدل على معنى من شأنه أن يكون متبوعا بالتعقل والفهم للمعنى المراد، والمعنى المتبوع هو المعنى الحقيقي للفظ، والمعنى المراد، والمعنى التابع هو المعنى الكنائي المراد من اللفظ وهو المقصود بالإفادة، و به يتعلق الإثبات والنفي، و إليه يرجع الصدق والكذب.

وعرفها السكاكي بقوله : " الكناية هي ترك التصريح بذكر الشيء على ما ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور على المتروك كما نقول فلان طويل النجاد لينتقل منه على ما هو ملزوم وهو طول القامة، وكما تقول فلانة نئوم الضحى لينتقل منه على ما هو ملزومه وهو كونها مخدومة غير محتاجة على السعي بنفسها في إصلاح المهمات وذلك أن وقت الضحى وقت سعي نساء العرب في أمر المعاش وكفاية أسبابه وتحصيل ما يحتاج إليه في تهيئة المتناولات وتدبير إصلاحها فلا تنام فيه من نسائهم إلا من تكون لها خدم ينوبون عنها في السعي لذلك"[2]، فالمتكلم يعتقد بدور المعنى الكنائي في إقناع المخاطب ؛ لذلك يعتمد كثيرا على الكفاءة المعرفية له، ودورها الكبير في استنباط المعنى، ودفعه للاقتناع، فالتعاقد اللساني بين الباث والمتلقي مهم جدا ؛ لأنه يوفر فضاء توالديا للمعاني، فيقام ضرب من "التواصل بين الأصل

---

(1) دلائل الإعجاز / 70 .

(2) مفتاح العلوم/ 402.

المستدل عليه (القضايا والحقائق) والآلة المستدل بها (اللغة) فيحدث من ذلك التواصل، وينجم التعاقد، بين المحاج والمحجوج على صدقية الفتاوى اللغوية باعتبارها أداة قوية على الإمكانات التأويلية، التي يتجاوز فيها المؤول الظاهر إلى الباطن، والمعلوم إلى المجهول؛ اقترابا من النبع ومشارفة للأصل،فيرتجي التوحد ويطلب الحلول"[1].

تكمن الطاقة الحجاجية للكناية في تركها للذهن مجالا لإقامة علاقات تؤدي في النهاية إلى الإقناع العقلي بالحقيقة التي يريد المتكلم إثباتها، فيوردها المتكلم بوصفها وسيلة إقناعية، تسهم في اتساع الأفق الإقناعي وحصول الإقناع، فيورد الكناية كطرح فلسفي، ومتى ما اكتشفها القارئ أقر بصحة الطرح.

ومن كنايات ابن نباتة في خطبة له يذكر فيها الموت :" أيها الناس تجهزوا فقد ضرب فيكم بوق الرحيل، وابرزوا فقد قربت لكم نوق التحويل، ودعوا التمسك بخدع الأباطيل والركون إلى التسويف والتعليل، فقد سمعتم ما كرر الله عليكم من قصص أبناء القرى، وما وعظكم به من مصارع من سلف من الورى، مما لا يعترض لذوي البصائر فيه شك ولا مرا وأنتم معرضون عنه إعراضكم عما يختلق ويفترى، حتى كان ما تعاينون منه أضغاث أحلام الكرى، وأيدي المنايا قد فصمت من أعماركم أوثق العرى، وهجمت بكم على هول مطلع كريه القرى"[2] فـ(بوق الرحيل) هنا كناية عن الموت، فشبهه بعملية سير الجيوش والقوافل سابقا، فعندما يجهز المسافرون يضرب بوق، دلالة على ابتداء عملية السير، فتتمظهر حجاجية أسلوب الكناية هنا في أنه أعطى للخطاب معنيين، أحداهما قريب مقصود وقد يكون مقصودا أيضا وآخر يختفي خلف النص وهو الذي يسعى إليه الباث؛ لما له من تأثير قوي في

---

(1) الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل / 321.

(2) ديوان خطب ابن نباتة / 219 .

المتلقي ولما يمتلكه من قوة راسخة في الخلفيات المعرفية للمتلقي بغية تحقيق الهدف الإقناعي، فالمعنى الظاهر هو الرحيل، لكن المعنى الذي يرومه الخطيب هو الموت، الذي جعله أمرا واقعا لا محالة، وجعل بداياته متحققة عندما نفخ في البوق.

لقد استعمل حجاجية المعلومة القديمة، كون نفخ البوق كان يستعمل قديما في الحروب، وهذه المعلومة تسمى الموضع (Topoi) وتشكل فكرة أو رأيا هو محل إجماع لدى المتخاطبين،ويكون بمثابة قانون عبور – بحسب تولمين- من المعطى إلى النتيجة، صحيح أن علاقة الكناية علاقة المحاورة لا المشابهة، ولكنها قائمة على العدول من المعلومة القديمة المتداولة إلى المعلومة الجديدة، فالمعلومة القديمة تمثل البينة على الدعوى الجديدة في إطار ذهني محكم[1].

ومن كناياته في خطبة له في شهر ذي القعدة، يقول فيها ذاما الدنيا وداعيا الناس إلى التأسي بسنن السابقين، وبقانون الفناء الدنيوي :" بينما المرء رافلا في أذيال مرحه، جائلا في مجال فرحه، جاهلا بمواقع مِنَحِهِ، غافلا من مصارع مجترحه، إذا قعدت به ناهضات قواه، وعمدت لجسمه ناقضات عراه، وحالت أحواله في عين من يراه، ولم تنفعه صفات الطبيب ولا رقاه..."[2] لقد قدم ابن نباتة مقدمات طبيعية لحياة الإنسان، وهو يعيش في بحبوحة الصحة ورغد العيش، غافلا عن حوادث الدهر وخطوبه، حتى تباغته ناهضات القوى، وهي كناية عن الأمراض التي تصيب الإنسان، فتنقض قواه، وتحيلها ضعفا وقلة حيلة.

ومن كناياته في خطبة له يذكر يوم القيامة :" أيها الناس : اهتفوا بالقلوب لعلها تهب من وسن رقادها، واصرفوا أعنة أهواء النفوس عن موارد إبعادها، واعرفوا آجل إصدار الأمور بعاجل إيرادها، واقتفوا في دار النقلة والزوال آثار زهادها، فقد ناحت

---

(1) ينظر في نظرية الحجاج / 92-93.

(2) ديوان خطب ابن نباتة / 125.

الدنيا على أهلها بألسن انقلابها..."[1]. فاستعمل ابن نباتة كنايتين هنا في قوله:" تهب من وسن رقادها" كناية عن غفلة القلوب، والوسن هو ثقلة النوم، وقيل: النعاس، فكنى به عن غفلة القلوب، وعن عدم اكتراثها بما ينتظرها في الحياة الآخرة، ومن شدة غفلتها ونومها فإنها لا تصحو إلا عندما يهتف فيها بصوت عال، دلالة على الابتعاد الكلي والتغلغل في الأهواء، التي مثلت موارد الإلهاء والابتعاد عن الحقائق، فجسدت الكناية هنا وسيلة إقناع من خلال توسيع أفق المخاطَب على الحقائق، وطرحت النتيجة المقدمة وهي الغفلة بداية ثم طرحت مقدمات وأسبابا لها، وهي التمسك بموارد الأهواء، وثمة كناية أخرى في قوله:"فقد ناحت الدنيا على أهلها..." وهي كناية عن تقلبات حوادث الزمان على أهل الدنيا، وعدم ديمومتها، وتغير حالها من الرخاء والنعيم إلى الشدة والعناء .لقد مثلت الكنايات دفعا حقيقيا في عملية الإقناع، وحث المخاطَب على النهوض بالغرض من الحدث الكلامي، وهو الاتعاظ والتنبه لحاله، والاستيقاظ من الغفلة التي وقعوا فيها، نتيجة كثرة الذنوب، وتعاظم الخطايا.

لقد تفادى ابن نباتة التصريح، وأقبل على التلميح بالقضايا التي أراد توصيلها للمخاطَب، وراهن على فطنة المتكلم وبراعة تلقيه، وحدة ذهنه، وسرعة فهمه للدلالات الباطنية المختفية وراء ألفاظه الظاهرة، فاتكأ على المحل الضمني الذي يوجب على المخاطَب ملأه ؛ مما يؤدي إلى الخضوع والتسليم بالإقناع. لقد كانت غاية الصنعة البلاغية عند العرب التأثير بالنفوس فـ" العرب انتهت من إحكام الصنعة الجديرة بالتأثير في النفوس إلى ما لم تنته إليه أمة من الأمم"[2]، ولا يعرف الخطاب بالبلاغة إلا إذا عرف كيف يختار الأساليب والصور التي تؤثر في نفس المتلقي،

---

(1) نفسه / 254 .

(2) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة / 182 .

فمراعاة حاله كانت من أهم القضايا التي استندت عليه النظرية البلاغية العربية، بوصفه عنصرا أساسا في عملية الإقناع[1].

ومن كناياته في خطبة له في ذم الدنيا :" أما في ذلك عباد الله ما أنذر بالرحيل، ودلَّ على التحويل، وقلقل القلوب عن القرار، وشغل عن غرور هذه الدار، فكيف وهو أقرب منازل السفر الطويل، وأعذب مناهل اليوم الثقيل، وذلك يوم فرار الخليل من الخليل..."[2] فقد استعمل ابن نباتة كنايتين في قوله :منازل السفر الطويل، وهي كناية عن منازل الموت، التي ينزلها الإنسان بعد يوم مماته، فأقرب هذه المنازل هو الموت الدنيوي، لكن السفر طويل، وثمة منازل طويلة في الآخرة، على الإنسان الاستعداد لها بالعدة والمؤن ؛ نظرا لطول السفر وتعدد محطاته، وهي تكملة للخطبة التي ابتدأها بقوله :" أيها الناس أصيخوا بأسماع القلوب لقراع الخطوب..." وكانت بدايتها الحديث عن ذكر الموت وفاعليته في حياة الناس وتخريب مكتسباتهم الدنيوية، ثم جاءت الكنايات عبر وصفه بأنه أقرب منازل كثيرة سيمر بها الإنسان ؛ لذلك حشد الخطيب الكناية للتأثير على السامع وحثه على ترك غرور الدنيا والجد والعمل في الاستعداد للسفر الطويل كون الحياة الدنيا محطة من محطاته الكثيرة، ثم جاء بكناية أخرى وهي قوله :" وأعذب مناهل اليوم الثقيل " كناية عن يوم القيامة، ذلك اليوم الثقيل الطويل في ساعاته ولحظاته وأحداثه ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾(عبس 34- 36).

والملاحظ أن كنايات ابن نباتة أبلغ وأكثر حجية من القول الحقيقي، فيما لو صرح بالألفاظ الحقيقية، ذلك أن العلماء والبلغاء قد اتفقوا " على أن المجاز

---

(1) ينظر، دور المخاطب في إنتاج الخطاب الحجاجي، د. حسن المودن، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته 1/ 251 .

(2) ديوان خطب ابن نباتة / 266-267 .

والكناية ابلغ من الحقيقة والتصريح ؛ لان الانتقال فيهما من الملزوم إلى اللازم فهو كدعوى الشيء ببينة، فإن وجود الملزوم يقتضي وجود اللازم ؛ لامتناع انفكاك الملزوم عن لازمه... "[1].

ومن كناياته في خطبة له في النهي عن الفتنة يقول:" أيها الناس : إن الفتنة نار شديد ضرامها، بعيدٌ مرامها، جائرة أحكامها، دامِرة أعلامها، مسمومة سهامها، مذمومة أيامها، تغير النعم، وتعجل النقم، وتقطع وشايج التواصل، وتصير بأهلها إلى البغضاء والتخاذل... "[2]. لقد خلقت كنايات ابن نباتة جوا نفسيا مختلفا، تنوعت فيه صور الترهيب والتخويف ؛ خدمة للغرض الإبلاغي، وهو الحث على ترك الفتنة، والابتعاد عنها، فهي كالحاكم الجائر، الذي يقوم على رقاب الناس،فيفسد في الأرض ويهلك الحرث والنسل، وهي كآلة الحرب التي يستعملها الأعداء، ولكن سهامها مسمومة، وهي كالسنين الكبيسة التي تمر على الناس، مذمومة أيامها.

لقد استعمل ابن نباتة كنايات متعددة وصورة مختلفة (شديد ضرامها، جائرة أحكامها، دامرة أعلامها، مسمومة سهامها، مذمومة أيامها) فاتكأ ابن نباتة على مقومات عديدة في ذاكرة المتلقي الثقافية والسياسية والعقدية ؛من أجل الإقناع في نفس المتلقي والتأثير عليه، فاعتمد على ذاكرة المتلقي الثقافية التي تشي بما تخلق الفتنة من حروب ودمار وتنافس واقتتال بين المتخاصمين، وعلى ذاكرة المتلقي السياسية التي تشي بما يكون في زمن السلطان الجائر من اضطراب وعدم الحكم بما أنزل الله، وعلى ذاكرة المتلقي التاريخية، التي تشي بما خلقت الفتنة من نزاعات بين القبائل والأقوام يكره ذكرها ويذم.

---

(1) مختصر المعاني، سعد الدين التفتزاني / 263 .

(2) ديوان خطب ابن نباتة / 283-284.

الراكز في ثقافة المتلقي أن

حكم الحاكم الجائر

يقتضي

↓

ضياع الحقوق و

هلاك الحرث والنسل

↓

إذن الفتنة تقتضي

↓

ضياع الحقوق وجور الأحكام

رابعا: البديع

يسود اعتقاد بأنّ الأشكال اللغوية التي تنتمي إلى المستوى البديعي يقف دورها عند الوظيفة الشكلية التي تستهدف التحسين والزخرفة، لكن هذا الرأي مغلوط، فإن لها دورا حجاجيا واضحا، بهدف الإقناع والبلوغ بالأثر مبلغه الأبعد، كالمقابلة والجناس والطباق[1]، فللأشكال الموسيقية دور كبير في عملية الإقناع النصي، بوصفها نشاطا يحفز المخاطَب، ويكون قادرا على توليد دلالات وتأويلات، وتماز بقدرتها على إقناع النفوس واستمالتها.

---

(1) ينظر الحجاج في الخطابة النبوية / 156.

يستعمل المتكلم أشكالا تصنف بأنها بديعية، ولها دور حجاجي " لا على سبيل الزخرفة، ولكن بهدف الإقناع، حتى لو تخيل الناس غير ذلك، بيد أن البلاغة العربية مليئة بهذه الصور والإمكانات، ومليئة بالشواهد التي تثبت أن الحجاج من وظائف هذه الصور، وليس وجودها على سبيل الصنعة في أصلها، وإن كان لا يمنع المخاطب من أن يبدع كيفما يشاء "(1)، فتستعمل الآليات البديعية في إحداث تغيير في وجهة نظر المخاطَب وإحداث الإفهام المطلوب، وحينئذ تكسب صفتها الحجاجية، فإذا أدركنا " أن الآليات الحجاجية القياسية التي تتحكم في بناء الخطاب الطبيعي تقوم في عمليات الفريق والإثبات والإلحاق، وإن هذه الآليات الاحتجاجية هدفها الإفهام، تبينا أن أساليب البيان مثل المقابلة والجناس والطباق وغيرها ليست اصطناعا للتحسين والبديع، وإنما هي أصلا أساليب للإبلاغ والتبليغ "(2).

1. الطباق :

عرفه أبو هلال العسكري بقوله: "المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو البيت من بيوت القصيدة، مثل الجمع بين البياض والسواد، والليل والنهار، والحر والبرد"(3)، كقوله تعالى: ﴿ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾(أل عمران 27) ويعرفه الجرجاني بقوله: "وأما التطبيق : فأمره أبين، وكونه معنوياً أجلى وأظهر، فهو مقابلة الشيء بضده، والتضاد بين الألفاظ المركبة

---

(1) استراتيجيات الخطاب / 497-498.

(2) مراتب الحجاج وقياس التمثيل، طه عبد الرحمن، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، المغرب، العدد التاسع، 1989 م / 18 .

(3) كتاب الصناعتين/ 238.

محال، وليس لإحكام المقابلة ثَمَ مجال"[1]، فتغلب الصفة المعنوية على تعريف الجرجاني، ويرجحها على الصفة اللفظية، ويقسم على قسمين لفظي ومعنوي :

أولاً: الطباق اللفظي

وهو الذي ينقسم باعتبار طرفيه إلى قسمين :

أ- الطباق الحقيقي : وهو على قسمين :

القسم الأول : طباق الإيجاب : وهو "الجمع بين الشيء وضده"، ومثاله قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (التغابن 2).

ومن استعمالات ابن نباتة لهذا القسم قوله في خطبة يذكر فيها فضل شهر عاشوراء :" أوصيكم عباد الله وإياي بتقوى الله، فإن تقواه توجب كريم المآب، وجزيل الثواب،وإن مخالفته تُحِلُّ أليم العقاب، ووبيل العذاب "[2]. لقد استعمل الخطيب الضدين (العذاب والثواب)، ولكن المتمعن لاستعمال الخطيب لا يعدم البعد الحجاجي في استعمالاته، فلا يمكن لنا أن نعده من قبيل الصفة المعنوية التي توخاها، لقد قارب بين الضدين كي يعطي الخطاب مسارا ضديا، متناقضا احتماليا تبعا لخطوات المتلقي وهي حجية التناقض، حينما يعرض مسارين متناقضين دافعا باتجاه ترك أحدهما وتبني الآخر، وكان خطابه استشرافيا للمستقبل حاول قراءة البعد المستقبلي للمتلقي، فمن كان تقيا ورعا مجانبا للمحرمات التي فرضها سبحانه، كان مآبه كريما، وثوابه جزيلا، ومن سار عكس هذا السير،كان عقابه أليما وعذابه وبيلا، هذه المقابلة دفعت بالمسار الإقناعي للمتلقي، وحاولت فرض خارطة طريق عليه.

---

(1) أسرار البلاغة / 15.

(2) ديوان خطب ابن نباتة / 23.

والأمر نفسه نجده في طباقه في خطبة له يقول فيها :" أوصيكم عباد الله وإياي بتقوى الله، فإنها أمنع المعاقل، وأنفع الوسائل، من لزمها فاز وسلم، ومن حرمها امتاز وندم"[1]، فالمسار الحجاجي يتكرر في خطاب ابن نباتة، واستشرافه المستقبلي يتكرر، فهو يخير المتلقي بين طريقين، ويستعمل في ذكرهما المتناقضين (الفوز والندم) ولكن تخييره يضمر توجيها لأحد الطريقين، ويضمر فرضا لإحدى الجهتين من خلال ذكر مساوئ طريق الندم، ومحاسن طريق الفوز، وهو إقناع ضمني يتوخى فيه وجه المتلقي، ويحذر من فرض رؤية عليه، تاركا حرية الاختيار له ، ولكن بعد عرض مجموعة من الحجج والثوابت والقناعات " وأحذركم دارا دوائرها دائرة، وتجاراتها بائرة، وآفاتها راشقة، وآياتها ناطقة، المتعزز بها ذليل، والمتكثر بها قليل، من وثق بها خذلته، ومن اعتصم بها أسلمته، ومن طلبها فاتته، ومن تجنبها أتته "[2].

ومن طباقاته في خطبة له في الموت :" أيها الناس : استدركوا سوابق الحوبات، بلواحق التوبات "[3]وهو من الطباق اللفظي فقد ذكر الخطيب اللفظ وضده، فالحوبة هي الذنب وضدها التوبة، ولا يمكن لنا أن نعد هذا النوع مجردا من التوجيه الحجاجي الذي أراده الخطيب، بل إن الحجية واضحة في تلاحق الألفاظ وتتابعها ؛ كي تعطي دافعا تأثيريا وتوجيهيا للمتلقي للسير في المسار الذي رسمه الباث.

القسم الثاني : طباق السلب : وهو ما كان فيه أحد طرفي الطباق مثبتـًا والآخر منفيـًا أو كان أحد طرفيه في صيغة الأمر والآخر في صيغة النهي، مثال الأول قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ (الروم 6-7)، ومن الثاني قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا

(1) نفسه/ 57.

(2) ديوان خطب ابن نباتة / 58.

(3) نفسه/ 238.

ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ (المائدة 44)، وقد يكون الجمع بين طرفين مختلفين إما منفيين، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾(الأعلى 13)، أو "مثبت ومنفي" كقوله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾"(التحريم 6)، وقوله تعالى : ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾(النساء 36).

ب- الطباق المجازي : ما كان طرفاه غير حقيقيين، أي استعملا مجازا، كقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾(الأنعام 122)، فالمعنى في قوله ميتا فأحييناه هو ضالاً فهديناه[1]. ومنه في خطب ابن نباتة "أيها الناس : ما هذه السنَّة وانتم منتبهون؟، وما هذه الحيرة وأنتم تنظرون ؟ وما هذه الغيبة وأنتم حاضرون ؟ وما هذه السكرة وانتم صاحون ؟ وما هذه الطمأنينة وانتم مطلوبون ؟وما هذه الإقامة وانتم راحلون ؟"[2] فاستعمل الخطيب عددا من الطباقات المجازية، فلم تكن الألفاظ المتقابلة حقيقية، ولكنها خدمت العملية الإقناعية، وسارت في ركب التأثير على المتلقي، والتعجب من تناقض حاله، فلم يقصد بالسنة النوم الذي نعرفه أو النعاس، ولكنه تعجب من حيواتهم، ومع ذلك فهم في نوم فكري وغفلة عن حقائق الحياة،وتعجب من حيرتهم في الدنيا، وضلالهم عن الطريق، مع أن الحقائق واضحة للعيان، فقصد بالنظر النظر إلى عظم الخالق، وتجلياته في خلقه، مما لا يترك مجالا للحيرة في الأمور جميعها، ولم يقصد بالغيبة والحضور الجسديين، بل قصد الغيبة والحضور العقليين، وغياب الفكر عن الحقائق، مع أن الفرد حاضر، ولا عذر للتقصير. فقابل بين السكرة والصحة، ولكنه قصد السكرة المجازية، أي الذهول والدهشة، وهو تناص مع قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (الحج 2)

---

(1) ينظر الإتقان في علوم القرآن،عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت 911هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،الهيئة المصرية العامة للكتاب 1974 م، 3/ 325.

(2) ديوان خطب ابن نباتة / 139-140.

"والمعنى : وتراهم سكارى على التشبيه، وما هم بسكارى على التحقيق، ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم وطير تمييزهم، وردّهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه. وقيل : وتراهم سكارى من الخوف، وما هم بسكارى من الشراب"[1]. كل تلك المقابلات جرت في الجو الإقناعي الذي خلقه الخطيب، ومحاولة التأثير في نفس المتلقي، وتذكيره بنعم الله التي أنعم بها عليه،موجها الخطاب نحو النتيجة التي يريد أن يتوصل إليها، والغاية المنشودة، وهي دفع الإنسان نحو الإحسان لنفسه أولا من خلال حسن الارتياد، والاستعبار بما ارتكب أو ما فات. ومنه أيضا في خطبة له يذكر تصرف الزمان والمعاد " أيها الناس إن الدنيا متاع، مقامكم فيها اطلاع، ووصلها لكم انقطاع، وارتفاعها بكم اتضاع "[2] فمقابلاته كانت مجازية فوصل الدنيا كناية عن حلاوتها، وإقبالها على الفرد، وتمتعه بنعمها، ولكنه وصل زائف ؛ لأن ذلك يضمر بعدا عن الله، ويشي بمخالفات قد يرتكبها الفرد إذا ما ازينت بعينه، وانقطع عن خالقه، والارتفاع كناية عن الارتفاع المعنوي، والعلو الدنيوي الزائف، فما هو إلا اتضاع ووضاعة في مقام الكبير على خلقه.

ثانياً : الطباق المعنوي

وهو ما كان الطباق فيه بين الشيء وضده في المعنى لا في اللفظ، كقوله تعالى في أصحاب القرية : ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾(يس 15-16)، معناه ربنا يعلم إنا لصادقون[3].

---

(1) تفسير الكشاف 3/ 143.

(2) ديوان خطب ابن نباتة / 199.

(3) ينظر البرهان في علوم القرآن 3/ 456.

وهناك أنواع أخرى، وهي :

1. التدبيج:

وهو أن يذكر الشاعر أو الناثر الوانا يقصد الكناية بها أو التورية بذكرها عن أشياء من مدح أو وصف أو هجاء أو غير ذلك من الفنون، أو لبيان فائدة الوصف بها كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (فاطر 27) "فإن المراد بذلك والله أعلم الكناية عن المشتبه والواضح من الطرق، لأن الجادة البيضاء هي الطريق الملحوب التي كثر السلوك فيها جداً، وهي أوضح الطرق وأبينها"[1].

2. الترشيح:

وهو "أن يؤتى بكلمة لا تصلح لضرب من المحاسن حتى يؤتى بلفظة تؤهلها لذلك"[2]، يقول الحموي :" والذي أقوله إن المطابقة التي يأتي بها الناظم مجردة ليس تحتها كبير أمر ونهاية ذلك أن يطابق الضد بالضد وهو شيء سهل اللهم إلا أن تترشح بنوع من أنواع البديع يشاركه في البهجة والرونق كقوله تعالى ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(آل عمران 27) ففي العطف بقوله تعالى (وترزق من تشاء بغير حساب) دلالة على أن من قدر على تلك الأفعال العظيمة قدر على أن يرزق بغير حساب من شاء من عباده، وهذه مبالغة التكميل المشحونة بقدرة الرب سبحانه وتعالى فانظر إلى عظم كلام

---

(1) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر بيان إعجاز القرآن،أبو الإصبع المصري(ت654هـ)تحقيق د. حفني محمد شرف / 532.

(2) نفسه / 271.

الخالق هنا فقد اجتمع فيه المطابقة الحقيقية والعكس الذي لا يدرك لوجازته وبلاغته ومبالغة التكميل التي لا تليق بغير قدرته"(1).

ومن الترشيح قول ابن نباتة في خطبة له يذكر فيها احتباس المطر :" أيها الناس : ما أفظع الفقر بعد الثراء، وأشنع العسر بعد الرخاء،وأبشع البؤس بعد النعماء، وأوجع المنع بعد العطاء،أما ترون نتائج الغدر بعد الوفاء، وعواقب إتباع مضلات الأهواء"(2) فلم تكن مطابقة الخطيب مطابقة عادية، بل توخى فيها أن يطابق بين الفقر والرخاء، ولكن الطباق لا يصلح حتى يؤتى بدلالة أخرى وهي كون الفقر جاء بعد الثراء، وهذا أعظم الفقر، وأشنع العسر ما كان بعد الرخاء، وكذلك فأبشع البؤس ما كان بعد نعماء مرت على الإنسان، فحاكى الطباق في مقابلاته الحالة النفسية التي تمر على الفرد الذي يمر بالعناء بعد ترف العيش،وكانت المقابلات في الإطار الإقناعي الذي رسمه، وكانت ثمة نتيجة أراد أن يقنع المتلقي بها بأن كل القحط وضيق العيش وحجب السماء قطرها بسبب ارتكاب الفحشاء واللهو بعيدا عن دروب التقوى التي رسمت لهم.

2.السجع :

السجع هو تواطُؤُ الفاصلتين من النَّثر على حرف واحد، وهو في النثر كالقافية في الشعر، وهو من المحسنات البديعية، التي عدت من المزخرفات اللفظية، ولكنها أيضا تطلع بدور حجاجي مهم، في تشجيع النفوس وتهيئتها للإقناع، يقول ابن الأثير(ت622هـ):"وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ولا أرى ذلك وجها سوى عجزهم أن يأتوا به وإلا فلو كان مذموما لما ورد في القرآن الكريم فإنه قد

---

(1) خزانة الأدب وغاية الأرب، تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي(ت837هـ)، تحقيق : عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال – بيروت، ط1 1987م 1/ 160.

(2) ديوان خطب ابن نباتة / 289.

أتى منه بالكثير، حتى إنه ليؤتي بالسورة جميعها مسجوعة كسورة الرحمن وسورة القمر وغيرهما، وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (الأحزاب 64-65) وكقوله تعالى في سورة طه: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾(طه 1-8)"[1].

وقد وردت معظم خطب ابن نباتة مسجوعة؛ غاية في تهيئة النفوس للقبول بالفكرة اللاحقة طرحها، ومن أسجاعه في خطبة له في وفاة رسول الله (ص) يقول فيها:" أيها الناس : إنه ليس أحد أكرم على الله من نبيه، ولا أشرف عنده من محمد نجيه وصفيه، وإنه لم يؤخر عند انقضاء مدته، ولم يعمر عند حضور منيته "[2]، فكان للقافية المشتركة، وصوت اللين والهاء بخاصة وقع على أنفس المتلقين، ولاسيما ما لسلاسة الصوتين وجريانهما، وهدوء وقعهما، مما يتلاءم مع سياق الخطبة في ذكر وفاة الرسول وتأثير ذلك على المسلمين.

وكثيرا ما تأتي خطبه مسجوعة بالكامل، ولكنه يتنقل من قافية إلى أخرى،بحسب تنوع مقام التبليغ، وتغير نوع الخطاب، يقول في خطبة له في الموت والوباء :"أيها الناس أضللنا القلوب فلا دليل عليها مرشد، وأهملنا النفوس فكل إلى عطبه مخلد، وأثقلنا الظهور بما ليس لنا على حمله مسعد، وأعملنا الجوارح فيما هو لها عن الرافعة مبعد، فلا العبر عن الفساد ناهية، ولا الفكر عن الرشاد داعية، ولا

---

(1) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد 1/ 195.

(2) ديوان خطب ابن نباتة / 271.

الهمم إلى الثواب سامية، ولا الذمم إلى الأحساب محامية، والموت تنظمكم رماحه، وتقسمكم بأيدي الفناء قداحه، ويخطفكم بالصغار اجتياحه، وتنسفكم إلى دار القرار رياحه، وكلما قربت الأيام منكم مسافته، أبعدت الآثام منكم مخافته، حتى كأن ما ترون في غيركم من أثره أمان لكم من وقوع حذره، ولابد لكل محتضر يرق فيه الشامت، ويعظ فيه الناطق الصامت، ويظهر له المقت الماقت، ويكثر إليه النظر الحائر الباهت، يا له مصرعا أطفأ مصابيح الحيل، وأنشأ مجاديح المقل، وأوشك مر الفراق وفتك مصابيح الحيل..."[1].

إن كل عملية إقناعية تستهدف المتلقي يجب أن يستعمل فيها المتكلم كل الإمكانات اللغوية، ويهيئ الظروف النفسية الملائمة، الحافة بالعملية الإقناعية، ولا شك أن الصوت يمثل حجة بالمعنى العقلي المنطقي، وله أثر ظاهر على المتلقي شأنه في ذلك شأن المستوى التوقيعي في الأقاويل الحكمية، ومنه السجع الذي يحقق قيمة حجاجية جديدة تعضد القوة الحجاجية الأصلية الكامنة في مضامين الخطابات.

---

(1) نفسه / 208.

الفصل الثالث

الآليات التداولية للتحليل الحجاجي في خطب ابن نباتة

3

الفصل الثالث

الآليات التداولية للتحليل الحجاجي

في خطب ابن نباتة

المبحث الأول

الآليات التداولية في الحجاج

مقدمة:

إن الجمع بين الأبحاث التداولية و الحجاجية أمر أصبح خصيصة السنوات الثمانين الماضية في البحث اللساني، تشهد على ذلك البيلوغرافيا وتوضحه المفاهيم، وهذا التفاعل بين البحث التداولي والبلاغي فيما يتعلق بالحجاج أدى إلى نشوء صلة في الدراسات اللسانية بين البحثين. وعلى صعيد تحليل الخطاب يمكن لنا أن نكتشف العلاقة بين البحثين " كأن يعتمد المحاور في بناء النص على الصورة الاستدلالية مجتمعة إلى مضامينها أوثق اجتماع، وكأن يطوي الكثير من المقدمات والنتائج، ويفهم من قوله أمورا غير تلك التي نطق بها، وكأن يذكر دليلا صحيحا على قوله من غير أن يقصد التدليل به، وأن يسوق الدليل على قضية بديهية أو مشهورة هي في غنى عن دليل للتسليم بها، كل ذلك لأنه يأخذ بمقتضيات الحال من معارف مشتركة ومعتقدات موجهة ومطالب إخبارية وأغراض علمية.

وكل سبيل استدلالي يكون هذا وصفه، فهو سبيل احتجاجي لا برهاني يُقيِّد فيه المقامُ التراكيبَ، ويرجح فيه العمل على النظر"[1]. فالحجاج فعالية تداولية جدلية : فهو تداولي لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة وتوجيهات ظرفية، ويهدف إلى الاشتراك جماعيا في إنشاء معرفة علمية. وهو أيضا جدلي ؛ لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع، وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة، كأن تبنى الانتقالات فيه لا على صور القضايا وحدها كما هو شأن البرهان، بل على اجتماع الصور والمضمون، وأن يطوى في هذه الانتقالات كثيرا من المقدمات والنتائج، وان يُفهِم المتكلم المخاطب معانيا غير التي نطق بها تعويلا على قدرة المخاطب على استحضارها إثباتا أو إنكارا كلما انتسب إلى مجال تداولي مشترك مع المتكلم[2]. ويمكن أن تكون تلك العلاقة في منظورات ثلاثة، تحدد في إطاراتها العلاقة بينهما :

1. المنظور المنطقي: الذي يعتمد اللسانيات النفسية المعرفية وعلم الدلالة المنطقي، فيبحث في الأول تحليل الخطاب والمحادثة عن إنشاء منطق للتفكير في اللغة الطبيعية. وفي ضوء هذا التصور يمكن لنا إجراء حساب المفهوم الذي يضعه المخاطب انطلاقا من تلفظ المتكلم ومن حكم المحادثة التي تماثل قواعد المحادثة التي يراعيها مجموع المتكلمين في إطار ثقافي معين. فتأويل الملفوظات يمكن أن يعبر عنه في شكل استنتاج قياسي. ويبحث في الثاني تجربة تكييف منطقي للحوارات اللغوية،انطلاقا من إعادة تشكيل مفهوم العلاقة بين الجمل تحديدا[3].

---

(1) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام / 46.

(2) ينظر نفسه / 65.

(3) ينظر التداولية والحجاج، صابر الحباشة / 17.

2. المنظور اللغوي : وهو منظور يتبلور في أبحاث (أوزفالد ديكرو، وأنسكمبر) عن الحجاج في اللغة، وبخلاف المنظور السابق فإن البنى الحجاجية ليست ذات طبيعة منطقية، بل لغوية بالأساس، داخلة في اللغة التي تحتوي في بنيتها على معلومات تتعلق بالحجاج، هذه المعلومات يمكن تشبيهها وظيفيا بتحديد مسبق للتسلسلات الخطابية. فالملفوظات تختص بقطبية حجاجية أي بكفاءة الدخول إلى محمل لغوي موجه نحو استنتاج، ويريد الباحثان أن يصل القول بأن الإخبارية في الواقع تعد درجة ثانية بالمقارنة مع الحجاجية، فالزعم بوصف الحقيقة قد لا يكون إلا قناعا لزعم أكثر جوهرية بممارسة ضغط على آراء الآخر، فالعلاقة بين الأقوال علاقة حجاجية لا منطقية استنتاجية، والقواعد الحجاجية التي تحكم تتالي الأقوال وتأويلها ليست قواعد منطقية أو استنتاجية، وإنما هي معان حجاجية مطروقة أي (مواضع)والقواعد متدرجة وكلية ومقبولة عند الناس عامة[1].(وقد تحدثنا عن نظرية التداوليات المدمجة في التمهيد من هذا الكتاب، التي تعد حصيلة أفكار الباحثين).

3. المنظور المحادثي :فإذا كانت البنية المنطقية للتفكير في منشأ اللغة، فإن الخطاب والتبادلات اللغوية هي مصبّها، ذلك هو المنظور المحادثي، وهو منظور يتوجه إلى وجهة مزدوجة :

- دراسة نظامية للروابط الحجاجية وعوامل التسلسل اللغوي الأخرى ؛ مما يسمح بإنشاء تحليل مصغر للمحادثة.

- دراسة بنيوية للمحادثة ولوحداتها الصغرى بالنظر إلى غاياتها، أي مقصدها الحجاجي، وهذه المقاربة تمنح التحليل الأدبي فائدة تحليل

(1) ينظر القاموس الموسوعي للتداولية 1/ 85.

موسع، أي أنها تتخذ وحدات كبرى من النص موضوع الدراسة، متجاوزة بذلك حدود الملفوظ فحسب. وبالتالي فإن إطار المحادثة هو بالتوازي إطار نظرية أساسية في تاريخ التداولية / نظرية قوانين التخاطب ، التي أنشأها غرايس، وحسب (غرايس) فإن هذه القوانين تشكل الإطار العام لكل محادثة بين طرفين.ويمكن لنا أن نفترض بأن المحادثة بوصفها عملا اجتماعيا للعلاقات بين البشر محكومة بمبدأ التعاون. وإذا لم يكن مبدأ التعاون قشريا في الواقع فإن وظيفته تأويلية،ذلك أن مبدأ التعاون يؤسس تأويل معنى الملفوظ، بما أن هذا الأخير يكون إما مراعيا لقوانين التخاطب أو مخالفا لها(1).

ونجد ارتباط الخطاب الحجاجي بالبعد التداولي على مستويات عدة ؛ ذلك أن الحجاج يعد ظاهرة متجسدة في الخطاب و به يتحقق، فهو ملتبس بألبسة لسانية وأسلوبية، على أساس أننا إذا أردنا رصد الصور الأسلوبية في الخطاب الحجاجي أو الصور البنائية الاستدلالية، فإننا مبدئيا سنكون بصدد أفعال كلامية لها مرجعية مقالية و مقامية مشتركة بين المتكلم والمستمع، أو بين المخاطَب والمخاطَب(2).

من هذه التعالقات بين البحث التداولي والحجاجي، أرى أن دراسة التحليل التداولي الحجاجي،أو بنية الخطاب الحجاجي التداولي تكون في دراسة ما انبثقت عن تلك النظريات من مباحث، أو ما شكلته من نقاط تلاق بين النظريتين، وأعني بها نظرية الأفعال الكلامية، والاقتضاء والاستلزام الحواريين، والسلم الحجاجي، وما يتفرع عنه من أدوات لغوية تتمثل بالروابط والعوامل الحجاجية " فإذا كان الحجاج

---

(1) ينظر التداولية والحجاج / 19-20.

(2) ينظر الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي،عالم الفكر مج 40،العدد 2/ 68.

فعلا استدلاليا يأتي به المتكلم لغرض إفادة المستمع وإقناعه خصوصا في الأدوار الخطابية، فإن المجال التداولي يعد مجالا أرحب وأوسع للوصف الاستدلالي، للمتكلم والمستمع، الذي تدل عليه في الحجة أدوات لغوية خاصة، وعلى هذا الأساس فإن هذا الالتقاء بين الوصف الاستدلالي الحجاجي والمجال التداولي، ينطلق أساسا من تصور المعنى في استثماره لعلاقات متعددة تضم الملفوظ مع ربطه بظروف المقال، وما يستتبع ذلك من تحديد للقرائن المعنوية المحددة لطبيعة الخطاب، أي الاهتمام بالمجال التداولي، وكذلك بموضوع الدلالة الذي يربط بالجمل من حيث دراستها بلاغيا، لتحديد صدقها أو كذبها، وهذه الجمل يسعى الجانب التداولي إلى تحليلها وعدم اختزال وصف قيمتها الإخبارية في الوصف الدلالي فقط، بل ليبرهن على الطريقة التي تسهم فيها قرائن العلاقات بإعطاء اتجاه تداولي للجملة، وأيضا لفرض نتيجة على المخاطب عن طريق التحاور المتبادل في الكلام"[1].

أولا: نظرية أفعال الكلام

تعد نظرية الحجاج في اللغة امتدادا وتطويرا لنظرية الأفعال اللغوية، بل إن (ديكرو) يعد الحجاج فعلا لغويا خاصا، ويتمثل الحجاج بالنسبة إلى هذه النظرية في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، أي متواليات من الأقوال والجمل بعضها بمنزلة الحجج، والبعض الآخر بمنزلة النتائج التي تستنتج منها[2].

لقد ميز فلاسفة الوضعانية بين وظيفتين رئيستين للغة: أحدهما الوظيفة المعرفية، ومفادها استعمال اللغة بوصفها أداة رمزية تشير إلى الوقائع الموجودة في العالم الخارجي، ويكون بذلك عمل اللغة تصويرا للعالم الخارجي، والوظيفة الثانية

(1) ينظر الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله / 86.

(2) ينظر نفسه / 87.

هي الوظيفة الانفعالية ومفادها أن الإنسان قد يستعمل اللغة أحيانا لإخراج انفعالات تضطرب بها نفسه كما يفعل الشاعر مثلا، وأصر فلاسفة الوضعانية على أن العبارات التجريبية هي فقط ذوات المعنى، بالإضافة إلى قضايا المنطق والرياضة، وحذفوا كل عبارات تخص الميتافيزيقيا والأخلاق والجمال، بحجة أننا لا نجد لها من وقائع العالم ما تطابقه[1].

إن نظرية الأفعال الكلامية من أهم الأسس التي قامت عليها اللسانيات التداولية في منظومة البحث اللغوي العربي المعاصر، وذلك بوصفها المجسد الحقيقي للاستعمالات اللغوية في الواقع،فانبعثت من رحم الفلسفة التحليلية، التي اقتصرت على وظائف معينة للغة، واهتمت بدراسة ما يفعله المتكلمون باللغة؛ من تبليغ و إنجاز أفعال وتأثير، وكل ذلك بغرض إنجاح العملية التواصلية بين المتكلمين. لقد بدأت مسيرة أفعال الكلام بالثورة على مفهوم الوصف المسند في الغالب للغة، الذي أقصى كثيرا من العبارات المستخدمة بحجة عدم خضوعها لمعيار الصدق والكذب، و في هذا الصدد بدأ "أوستين" - ضمن محاضرات (وليام جايمس)[2] - عمله بالكشف عن التعارض بين نوعين من المنطوقات : المنطوقات التقريرية الوصفية (constative utterences) ونوع آخر يتشابه مع النوع الأول تشابها ظاهريا في البنية، غير أنه لا يقوم بالوظيفة التي يقوم بها هذا النوع ويسمى أوستين هذا النوع بالمنطوقات الأدائية (performative utterences) وإذا كانت المنطوقات الأولى تجرى عليها قوانين الصدق والكذب، من مثل قولنا: الجو جميل، فإن النوع الثاني من الملفوظات لا تحكمه هذه القوانين، ويحتاج في مقابل

---

(1) ينظر التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، صلاح إسماعيل عبد الحق / 135.

(2) ينظر التداولية اليوم علم جديد في التواصل، آن روبول وجاك موشلار، ترجمة د. محمد الشيباني/ 31.

ذلك إلى جملة من الشروط والمعايير تضمن نجاحه، وذلك من مثل قولنا: افتتح رئيس البرلمان الجلسة[1].

جاءت نظرية "أوستين" كرد فعل مضاد لطرائق التحليل السائدة آنذاك، التي كانت تحلل الجمل مجردة من سياقها الخطابي المؤسساتي،وانقسمت على ثلاث مراحل :

مرحلة التمييز بين الملفوظات الوصفية والإنجازية، فبدأ في هذه المرحلة برفض تقسيم الملفوظات السائد على ملفوظات إنجازية، وأخرى وصفية، وذهب إلى القول بأن الأفعال الوصفية تنجز فعلا ما بمجرد أن ينطق المتكلم بها، فالقول هو الفعل، وبذلك فكل الأفعال هي أفعال إنجازية.

ومرحلة ثانية مرحلة تقييم معايير نجاح الفعل الكلامي، فوضع أوستين جملة من المعايير المقالية والمقامية، التي يشترط وجودها لنجاح الفعل الكلامي.

ومرحلة ثالثة مرحلة الفعل الكلامي، فقد توصل إلى أن جميع الأفعال الكلامية تتكون من ثلاثة أقسام على النحو الآتي :

1. فعل القول (الفعل اللغوي) (Acte locutoire): ويراد به (إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات بناء نحوي سليم وذات دلالة) ففعل القول يشمل بالضرورة على أفعال لغوية فرعية وهي المستويات اللسانية المعهودة : المستوى الصوتي والمستوى الصرفي والتركيبي والدلالي.
2. الفعل المتضمن في القول (Acte illocutoire): وهو الفعل الإنجازي الحقيقي إذ " إنه عمل ينجز بقول ما " وهذا الصنف من الأفعال الكلامية هو المقصود بالنظرية برمتها ؛ ولذلك اقترح "أوستين" تسمية الوظائف

---

(1) ينظر البعد التداولي والحجاجي في الآيات الدالة على الغرور في القرآن الكريم، د. باسم خيري خضير مجلة الكلية الإسلامية الجامعة، العدد 31، 2/ 272.

اللسانية الثاوية خلف هذه الأفعال بـ"القوة الانجازية" ومن أمثلته: الاستفهام، والتوكيد، والتحذير، والأمر...الخ.

3. الفعل الناتج عن القول (Acte perlocutoire): وأخيرا يرى" أوستين" أنه مع القيام بفعل القول، وما يصحبه من فعل متضمن في القول (القوة) فقد يكون الفاعل (وهو هنا الشخص المتكلم) قائما بفعل ثالث هو التسبب في نشوء آثار : (الإقناع والتضليل والإرشاد، التثبيط...الخ) ويسميه "أوستين" : الفعل الناتج عن القول، وسماه بعضهم (الفعل التأثيري)(1).

ويصنف "أوستين" أفعال الكلام في كتابه (كيف نصنع الأشياء بالكلمات؟) إلى خمسة أصناف(2) :

أ. أفعال القرار (Les verdictifs): وتتعلق بالأفعال التي ترتبط بالأحكام ذات الصيغة القضائية، الإدانة – التبرئة – إصدار المراسيم...ألخ .

ب. أفعال التنفيذ (Les exercitifs): وتشتمل أفعالا محملة بقرارات في كيفية التصرف، : الأوامر، الطلب، التوصية، النصح..ألخ.

ت. أفعال الوعد (Les promissifs): والتي تفرض على المتكلم التزاما معينا بكلامه، كأفعال الإقرار والوعد والرغبة...ألخ.

ث. الأفعال السلوكية (Les comportatifs): وتضم الأفعال التي تتخذ في موقف معين، كأفعال الاستحسان والتوبيخ والتهنئة والشكر والرثاء..ألخ.

---

(1) ينظر البعد التداولي والحجاجي في الآيات الدالة على الغرور / 2/ 273-274.

(2) ينظر التداولية من أوستين إلى غوفمان/ 62.

ج. أفعال العرض :(Les expositifs): وتتضمن الأفعال التي تترجم طريقة ما لعرض الأشياء التي نتحدث عنها : كأفعال الاستشهاد والوصف والتنويه والنفي والإنكار...ألخ.

ولعل حجاجية أفعال الكلام تأتي من اختلاف مستويات التلقي ما يؤكد الصفة الحجاجية للخطاب البلاغي، وذلك يجعل أي قول مدعم صالحا أو مقبولا بمختلف الوسائل، ومن خلال مختلف الصيغ اللغوية، إذا اعتبرنا أن هذه الصيغ هي أفعال كلام تمارس وظيفة التأثير من خلال قوتها الكلامية، التي تتجلى بدورها من خلال طرائق منطقية في البناء والربط والعلاقات الاستدلالية التي يمثل الحجاج أهم مظاهراها[1].

ثانيا: الاستلزام الحواري

يعد الاستلزام الحواري (conversational implicature) من أهم مباحث التداولية، وألصقها فكرة بطبيعة البحث التداولي، وأبعدها عن مجالات البحث الدلالي[2]، فتتمحور فكرته حول العلاقة بين المتكلم والمخاطب، وتحديد دلالات الخطاب عن طريق التفاعل بينهما، فثمة معان صريحة يلقيها الباث، لا يتكلف المخاطب مشقة في الوصول إليها، وثمة إضمارات حوارية مكنونة في بعض الخطابات، يرمي الاستلزام التخاطبي إلى الوقوف عليها في التداول الفعلي، فيفسرها ويؤلها وفقا للظروف والسياقات المحيطة بها، سواء أكانت نفسية أو اجتماعية أو ثقافية أو تاريخية، ومنها ما يعنى بالسيكولوجيا الشعبية (عادات وتقاليد الشعوب) فالمتكلم لا يبني كلامه بعزلة عن العالم الخارجي، أو عن المخاطب بصورة خاصة،

---

(1) ينظر الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله/ 69.

(2) ينظر أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود احمد نخلة / 32.

بل على ضوء الفرضيات التي بناها مسبقا عن المتلقي، وشخصيته الثقافية والاجتماعية وقدراته الفكرية على استنباط المعاني والاستدلال عليها .

ويختلف الاستلزام الحواري عن قانون الاقتضاء، فالاستلزام مفهوم لساني برجماتي، يتغير بتغير ظروف إنتاج العبارة اللغوية،والاقتضاء يمتاز بكونه لا يتغير بتغير ظروف استعمال العبارة، فهو ملازم لها في جميع الحالات والأحوال. ومبدأ الاستلزام الحواري أصيل في التراث العربي، قال الرازي : " إن اللفظ إذا وضع للمسمى انتقل الذهن من المسمى إلى لازمه "[1] وهذا الانتقال يعني عدم وجود الافتراض في معنى الجملة، ولكنه اتصل بها برابط عقلي أو طبيعي أو اجتماعي، فالاستلزام الحواري حلقة الوصل بين المعنى الحرفي الصريح والمعنى المتضمن في شكل الجملة[2].

ثالثا: الاقتضاء التخاطبي

وهو من المصطلحات التي تنبه لها القدماء، يقول القاضي الجرجاني (ت816هـ):"مقتضى النص هو الذي لا يدل اللفظ عليه ولا يكون ملفوظا، ولكن يكون من ضرورة اللفظ أعم من أن يكون شرعيا أو عقليا وقيل: هو عبارة عن جعل غير المنطوق منطوقا ؛ لتصحيح المنطوق مثاله قوله تعالى :﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾(المجادلة3) وهو مقتض شرعا ؛ لكونها مملوكة إذ لا عتق فيما لا يملكه ابن آدم فيزداد عليه؛ ليكون تقدير الكلام فتحرير رقبة مملوكة"[3]. أما في الدرس اللساني المحدث، فهو أحد عناصر التداولية، وهو مصطلح قريب من اللزوم المنطقي في علم المعاني، ومن أهم مميزات الاقتضاء، أنه يقدم تفسيرا صريحا لمقدرة المتكلم

---

(1) المحصول في أصول الفقه، 1/ 219.

(2) ينظر النظرية البرجماتية اللسانية، د. محمود عكاشة / 87-88.

(3) التعريفات، القاضي الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري / 289.

على أن يعني أكثر مما يقول بالفعل، أي أكثر مما يعبر عنه بالمعنى الحقيقي للألفاظ المستعملة، إذ يفسر الاقتضاء تلك الخلفيات المعلوماتية المشتركة، بين المتكلم والمتلقي، فالمتكلم يوجه حديثه على أساس كم المعلومات المخزونة في ذهن المتلقي حول اللفظ الموجّه، فإذا قال أحدهم للآخر : أغلق النافذة، فإنه يفترض مسبقا أن النافذة مفتوحة، وأن هناك مبررا يدعو لإغلاقها، وأن المتكّلم قادر على الحركة والتنقل، وأن المتكلّم في موقع الأمر من المتكلَّم[1].

ويتسع مفهوم الاقتضاء ليشمل المعلومات العامة، وسياق الحال والعرف الاجتماعي والعهد بين المتخاطبين، فللاقتضاء دور معرفي بامتياز ؛لأنه يشمل كثيرا من المعارف كالفلسفة والمنطق و السيميائية و الفقه والأصول...الخ.

وللروابط الحجاجية دور مميز في بنية الاقتضاء التداولية، وتعد موضوعا أساسا في تحديد ظواهره وأدواته ؛ وذلك للوظيفية الدلالية التي تتخصص بها، وسعيها إلى ترتيب الجمل داخل النص، انطلاقا من أدوارها الحجاجية المعهودة فاقتران الواو في الترتيب الزماني، وفقا لقرائن خارجية، يفسر لنا الغرابة في عبارات مثل (نزل الركاب ووصلت الطائرة، وارتوى العشب وأمطرت السماء) لأن العبارات الصحيحة مع المخزون الاقتضائي والبعد الدلالي للواو تكون(وصلت الطائرة ونزل الركاب، وأمطرت السماء وارتوى العشب)[2].

وتعد الأغراض البلاغية من أهم الأدوات التي نستعين بها في الكشف عن المعلومات الاقتضائية، فكل عملية استنتاج وافتراض وتحليل تهدف إلى تطويق دلالة الألفاظ والتراكيب، في محاولة لتقييد تلك الدلالات وصولا إلى فهم حقيقي

---

(1) ينظر الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي / 98.

(2) ينظر،الاقتضاء في التداول اللساني / 151.

لدى المخاطَب، بغية إيصال الخبر، فالانتظام والإيجاز، والإطناب والكناية، وغيرها أبانت عن وجه آخر للاقتضاء.

رابعا: السلم الحجاجي

يلجا المتكلم في طريقه لإحداث الإقناع في المواقف الفكرية والعقَدية في فكر المتلقي إلى مجموعة من الحجج، تتنامى في إطار فكري معين، بحيث تكون كل حجة أقوى من الحجة التي تسبقها، وأضعف من الحجة التي تليها، فالسلم الحجاجي مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية وموفية بالشرطين التاليين[1]:

1. كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.
2. كل قول كان في السلم دليلا على مدلول معين، كان ما يعلوه مرتبة دليلا أقوى عليه، فقولنا : ناصر من أكفأ الطلاب ؛ فقد نال ميدالية التقدير من الدرجة الأولى، ونال وسام الملك من الدرجة الأولى، ثم نال وسام الملك من الدرجة الممتازة، فنيله ميدالية التقدير هي حجة أولى على كفاءته، والوسام الآخر حجة أقوى من الحجة الأولى، أما الوسام الثالث فهو أقوى الحجج أو الأدلة على كفاءته،ونيله لأحد الأنواط أو الأوسمة دليل على نيله ما دونه حسب ما تقتضيه الأنظمة.

كما يصدق كذلك في النفي أيضا، كأن يسوق المتكلم خطابه الذي يتضمن أكثر من دليل على بخل أحد الناس: فلان بخيل لا يقرض أحدا، ولا يتصدق، ولو طلبت ذنبا من ذنوبه فلن يعطيك إياه.فقد أنزل المتكلم عدم الإقراض في المرتبة

---

(1) ينظر اللسان والميزان/ 277.

السفلى من سلم الأدلة ؛ لأن القرض بعوض مادي في الدنيا، بحيث تكون الصدقة دون عوض مادي دنيوي ؛ ففائدتها تكون بالثواب الأخروي، لماذا بخل بالصدقة فقد بخل على نفسه، أما الذنب فمن المستحيل أن يطلبه أحد منه، وقد افترض المتكلم حدوث المستحيل، أي طلب الذنب ليدل على شدة بخل المتحدث عنه ؛ ولذلك فهو أقوى الأدلة على مدلول الخطاب أو على دعوى البخل التي يريد المتكلم دعمها بحججه(1).

فالحجاج في هذا المفهوم تقديم للحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، ويتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى يتمثل الحجاج في إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها بمثابة النتائج التي تستنتج منها، فكون اللغة لها وظيفة حجاجية يعني أن التسلسلات الخطابية محددة، لا بوساطة الوقائع المعبر عنها داخل الأقوال فقط، ولكنه محددة أيضا وأساسا بوساطة بنية هذه الأقوال نفسها، وبوساطة المواد اللغوية التي تم توظيفها وتشغيلها(2). فمثلا حصول زيد على الدكتوراه فهو يستلزم منطقيا حصوله على الماجستير والبكالوريوس وفق العرف الأكاديمي المعتاد.

ن تفوق زيد

↑

- حصل زيد على الدكتوراه
- حصل زيد على الماجستير

---

(1) ينظر آليات الحجاج وأدواته، 1/ 95-96.

(2) ينظر الحجاج والمعنى الحجاجي، أبو بكر العزاوي، ضمن التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه/ 57.

- حصل زيد على البكالوريوس

ونلحظ كذلك انتماء الحجج جميعها إلى حقل حجاجي واحد، وهو مفهوم حسب - ديكرو- يرتبط بالنتيجة أو بالمتكلم. بمعنى أنه عندما ينتمي معنى جملتين أو أكثر إلى الحقل الحجاجي فإنهما يسعيان إلى النتيجة نفسها. وإن كانا يختلفان وفق القوة والضعف، كما أنهما يمثلان أيضا اختيار المتكلم الذي اعتبرهما دليلين مناسبين يخدمان هدفه الذي يسعى إلى تحقيقه"[1] فإذا انتمى قولان أو أكثر إلى باب حجاجي واحد ؛ فذلك يعني أنهما يمكّنان من خدمة النتيجة نفسها، ويمثلان اختيار متكلم واحد"[2] وكل تلك الحجج الثلاث تساق للوصول إلى نتيجة (ن) مفادها "تفوق زيد".

ومع أن السلم الحجاجي يبدو مقتصرا على العلاقات اللغوية أو شبه المنطقية، إلا أنه يمكن توسيع مفهومه، فلا يظل مقتصرا على الأدوات اللغوية أو الاستلزامات شبه المنطقية، إذ يمكن أن يتم إدراج كثير من أدوات الحجاج وآلياته ضمنه، ليصبح إطارا عاما لتفاضل الحجج، بل وتغليب بعضها على بعض، انطلاقا من المخزون اللغوي ونظامه والتراتبيات المكتنزة في ذهن الإنسان، بتفعيل الكفاءة التداولية. ويتمثل هذا الجزء بوجود بعض الخطابات التي تحكمها علاقات تراتبية مستقرة في كفاءة المتكلمين، كالتوكيد والشواهد الجاهزة والأدلة القرآنية والأحاديث الشريفة وأقوال السلف[3].

وللسلم الحجاجي ثلاثة قوانين هي :

---

(1) ينظر الاستدلال الحجاجي التداولي / 93.

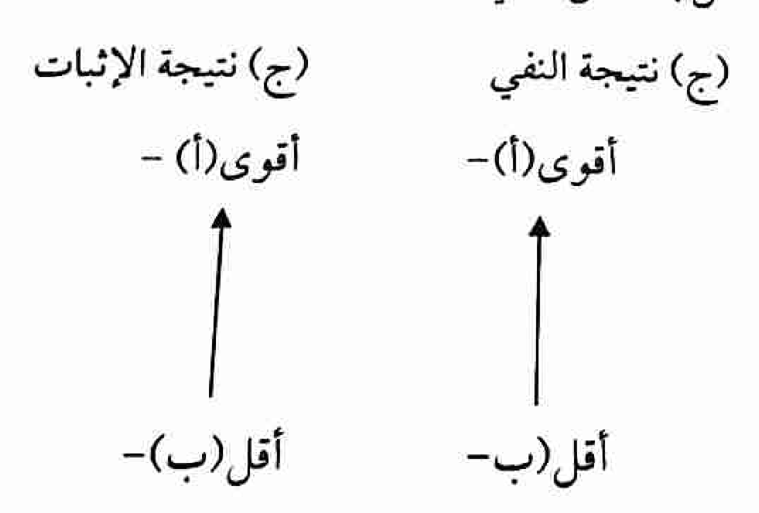
(2) القاموس الموسوعي للتداولية 1/ 298.

(3) ينظر استراتيجيات الخطاب / 504.

1. قانون الخفض : مقتضى هذا القانون أنه إذا صدق القول في مراتب معينة من السلم، فإن نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها.
2. قانون تبديل السلم : مقتضى هذا القانون أنه إذا كان القول دليلا على مدلول معين، فإن نقيض هذا القول دليل على نقيض مدلوله.
3. قانون القلب : مقتضى هذا القانون أنه إذا كان أحد القولين أقوى من الآخر في التدليل على مدلول معين، فإن نقيض الثاني أقوى من نقيض الأول في التدليل على نقيض المدلول[1]، ونوضح ذلك بالمثالين الآتيين:

- حصل زيد على الماجستير، وحتى على الدكتوراه.
- لم يحصل زيد على الدكتوراه، بل لم يحصل على الماجستير.

فإن كان (أ) أقوى من (ب) في السلم الحجاجي المعين بنتيجة (ج) فإن قانون القلب الحجاجي يسعى إلى أن يكون السلم عبارة عن درجات في النفي من الأقوى إلى الأقل، فإن النفي في (أ) أقوى من النفي في (ب) وذلك في درجة الحصول على نفي (ج)[2]، وكما مثل بالشكل الآتي :



(1) ينظر اللسان والميزان / 277-278.

(2) ينظر الاستدلال الحجاجي التداولي / 98-99.

قيم سالبة　　　　قيم موجبة

أدوات السلم الحجاجي :

1. القرائن الحجاجية (العوامل والروابط الحجاجية):

فالحجاج يقتضي تسلسلات خطابية معينة، وأشكالا من التتابع، تقود إلى استنتاجات، ومفهوم التوجيه الحجاجي إسناد اتجاه معين لقول ما ؛ لغاية بلوغ نتائج محددة، وهذا التوجيه يوسع الاحتمالات الحجاجية تارة، وأخرى يضيقها ؛ ليقودها في اتجاه معين، تحدده النية اللغوية للخطاب، التي تتضمن قرائن حجاجية يوظفها المتكلم لتوجيه خطابه، ومن أهم تلك القرائن (العوامل والروابط الحجاجية)[1].

وتمثل الروابط الحجاجية مجموعة من المورفيمات التي تصل بين ملفوظين أو قولين أو أكثر في إطار استراتيجية واحدة، فهي نوع من العناصر النحوية والظروف(الواو،الفاء،لكن،حتى،إذن،بل،لاسيما، بما إن، إذ...ألخ) يقوم بالربط بين فعلين لغويين اثنين، ومن ثمَّ فهو موصل تداولي يعمل على تفكيك مكونات الفعل اللغوي ؛ ليجعل منها أفعالا لغوية يحمل عليها وهي منفصلة بعضها عن بعض.

ويعد موضوع الروابط الحجاجية التداولية موضوعا أساسا في تحديد بنية الخطاب ؛ لكونها آلية مهمة في عملية الربط داخل النسق المقول، وتشارك في إنجاز الأغراض اللغوية المباشرة وغير المباشرة ؛ ذلك لكونها إطارا شاملا لمواصفات الربط الاستدلالي التداولي ؛ بوصفها قرائن تُعين على فهم المعنى الظاهر والخفي، كما أنها تعين على فهم المعاني التي تنجزها ملفوظاتها، واقترح "ديكرو" بعدم حصر

---

(1) ينظر بلاغة الإقناع في المناظرة / 99.

الرابط الحجاجي في وظيفة أحادية فقط، هي الأغراض اللغوية، ولكنها أيضا تؤدي أغراضا استدلالية حجاجية، وتؤسس لعلاقات ومعان من خلال ربطها بين وحدات الخطاب،باعتبار أغلبها يربط بين نتيجة وحجة[1].

وتربط بين وحدتين دلاليتين أو أكثر، في إطار استراتيجية حجاجية واحدة محددة،وتخدم دورا حجاجيا للوحدات الحجاجية التي تربط بينها، ومن تقسيماتها[2]:

1. الروابط المدرجة للحجج (حتى، بل، لكن، مع ذلك...).
2. الروابط المدرجة للنتائج (إذن، لهذا، بالتالي...).
3. روابط التعارض الحجاجي (بل، لكن، مع ذلك).
4. روابط التساند الحجاجي (حتى، لاسيما).

فقولنا :(زيد مجتهد إذن سينجح) تكون هذا القول من حجة ونتيجة قام الرابط الحجاجي بالربط بينهما.

والعوامل الحجاجية مجموعة من المورفيمات إذا وجدت في ملفوظ تحول وتوجه الإمكانات الحجاجية لهذا الملفوظ، فهي لا تربط بين متغيرات حجاجية، أي بين حجة ونتيجة، أو بين مجموعة حجج، ولكنها تقوم بحصر الإمكانات الحجاجية وتقييدها، التي تكون لقول ما، وتضم مجموعة من الأدوات مثل(ربما، كاد، قليلا، كثيرا، تقريبا، ما...إلا، لا...إلا، وجل أدوات الحصر)[3].

---

(1) ينظر الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله / 102.

(2) ينظر الحجاج في اللغة، أبو بكر العزاوي، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته / 65 - 66.

(3) ينظر اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي / 27.

ويقوم العامل الحجاجي بالربط بين وحدتين دلاليتين داخل الفعل اللغوي نفسه، فهو على هذا الأساس موصل قضوي فالعامل الحجاجي حسب" ديكرو" يكون داخل القول الواحد،وهي عناصر تدخل على الإسناد، ويظهر ذلك في المثالين الآتيين :

أ. الساعة تشير إلى الثامنة، أسرع.

ب. لا تشير الساعة إلا إلى الثامنة، أسرع.

فالقول الأول سليم ومقبول تماما، أما القول الثاني فيبدو غريبا ويتطلب سياقا أكثر تعقيدا حتى يمكن تأويله ويتطلب مسارا تأويليا مختلفا، فالمثال الأول له إمكانيات حجاجية كثيرة، فقد يخدم هذا القول نتائج من قبيل الدعوة إلى الإسراع، التأخر والاستبطاء موعد الإخبار، فهو يخدم النتيجة أسرع، ولا تسرع، لكن عند إدخال العامل الحجاجي (لا...إلا) فالإمكانات الحجاجية تقلصت، وأصبح الاستنتاج العادي لا داعي للإسراع/ تريث[1].

1. حجة الدليل : الحجج الجاهزة أو الشواهد هي من دعامات الحجاج القوية، إذ يضعها المخاطِب في الموضع المناسب،وهنا تتجلى براعته في توظيفها بحسب ما يتطلبه السياق، ويمكن تصنيفها في السلم الحجاجي بالنظر إلى طبيعتها المصدرية، فهي ليست من إنتاج المخاطِب بقدر ما هي منقولة على لسانه، ونقلها على لسانه ينبئ عن كفاءته التداولية،إذ يكمن دوره في توظيفها التوظيف المناسب في خطابه، وبهذا فهي تعلو الكلام العالي درجة، مما يجعلها ترقى في السلم الحجاجي إلى ما هو

---

(1) ينظر اللغة والحجاج/ 28-29.

أرفع[1]. ويسميها طه عبد الرحمن المحاورة البعيدة، ويقسمها على قسمين:

أ. طريقة ظاهرة : يعرض فيها المحاور شواهد من أقوال الغير مثل النقل والتضمين والحكاية والاقتباس والتعليق.

ب. طريقة باطنة : ينشئ بها المحاور نصه عبر نصوص سابقة مماثلة أو مباينة، ويفتح بها آفاق نصوص أخرى مكمّلة أو مبدِّلة[2] " وتسهم هذه الآلية في رفع ذات المخاطِب إلى درجة أعلى، وبالتالي منحها قوة سلطوية بالخطاب عند التلفظ بخطاب ذي بعد سلطوي في أصله، عندها يتبوأ المخاطب بخطابه مكانا عليا، ويستمد ذلك من سلطة الخطاب المنقول على لسانه فقط، وبالتالي تصبح السلطة هي سلطة الخطاب الذي يتوارى المخاطِب وراءه "[3]، ومن هذا النوع النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، وأقوال السلف.

2. الصيغ الصرفية (أفعل التفضيل، صيغ المبالغة).

---

(1) ينظر استراتيجيات الخطاب / 537.

(2) ينظر في أصول الحوار / 47.

(3) استراتيجيات الخطاب / 37 5.

المبحث الثاني

الآليات التداولية الحجاجية في خطب ابن نباتة

عندما ننتقل إلى تحليل الآليات التداولية الحجاجية في خطب ابن نباتة، نأخذ خطبته في الموت والمعاد، يقول فيها :" أيها الناس : ما هذه السنَّة وأنتم منتبهون؟، وما هذه الحيرة وأنتم تنظرون ؟ وما هذه الغيبة وأنتم حاضرون ؟ وما هذه السكرة وأنتم صاحون ؟ وما هذه الطمأنينة وأنتم مطلوبون ؟ وما هذه الإقامة وأنتم راحلون؟.

أما آن لأهل الرقدة أن يستيقظوا !؟ أما حان لأبناء الغفلة أن يتعظوا؟ أما أزف لأهل العقول أن يتفكروا !؟ أما ردف لذوي التجارب أن يعتبروا.

لقد صدقكم الموت عن الخبر، وأراكم تصاريف الغير، وآذنكم بالرحيل، وقدمكم جيلا بعد جيل، فما للقلوب لا تتصدع خشوعا، وما للدموع لا تجري بدل الدموع نجيعا.

أ تحسبون أن الأمر صغيرٌ، أم تتوهمون أن الخطب يسير!؟.

كلا لتردن الصمة الصماء،والداهية الدهياء... "[1].

لقد بدأ الخطيب حديثه بفعل كلام إنجازي، وهو الاستفهام (ما هذه السنة؟) وقوته الإنجازية في إرادة الإنكار عليهم والتهكم منهم، فكيف تكونون نعاسا وأنتم متنبهون، ولكن النعاس الذي أراده الخطيب يختلف عن الانتباه الذي ذكره، فالنعاس هنا من ترك التكليف، وعدم الانتباه لخطورة هذه الحياة وابتلاءاتها وكيف أننا لا نرعوي مما سبقنا من حوادث الدهر، و أفاد هنا معنى إستلزاميا يريد به غفلة الإنسان

---

(1) ديوان خطب ابن نباتة / 139-140.

وتقصيره، وأمعن الخطيب بالتهكم من السامعين عندما وصفهم بالسكارى، مع أنهم صاحون، وهنا خرج الكلام عن المعنى الظاهري إلى معنى استلزامي يراد منه وصفهم بالسكارى ومن ثمَّ اتصافهم بكل صفات السكارى من ذهاب العقل وفساد الرأي، مع أنهم صاحون ومن ثم فالسكرة التي أرادها لا يقصد منها السكرة الظاهرية وإنما لوازمها من ذهاب عقل الإنسان وعدم قدرته على تمييز الحق من الباطل وأفاد هنا الفعل التأثيري قصد تأنيبهم لعلهم يرعوون ويقدمون آخرتهم على دنياهم، ويستفيقوا من غفلتهم. لقد لعب التهكم دورا كبيرا في التأثير على المتلقي وحثه على فكرة المرسل، فيستعمل المرسل آلية التهكم لتبليغ الآخرين بموقفه، أو محاولة تعديل سلوكهم، وبالتالي فإن المتلقي سيفهم ما أراده الخطيب في خطابه السابق عن طريق التهكم أكثر مما لو عرضه بخطاب مباشر، ليبادر بتعديل سلوكه والانقياد لطلب المرسل، و" كذلك تستعمل آلية التهكم للتلميح إلى النقد، دون أن يضطر المرسل إلى أن يصرح بما يجرح مشاعر الآخرين أو بما يعريهم ؛ لأن خطاب التهكم يخفف المعنى التقويمي المقصود تبليغه مقارنة بالمعنى الحرفي،وعليه فإن النقد التهكمي أقل وطأة من النقد الحرفي،وكذا الشأن في الثناء التهكمي فهو أقل أثرا من الثناء الحرفي "[1].

ثم استعمل الخطيب سلما حجاجيا يحوي مجموعة من المقدمات التي تتراصف في سبيل نتيجة واحدة، ولكنها تتراصف وفق قانون الخفض بعد ذلك، عندما يقول :" لقد صدقكم الموت عن الخبر (مقولة 1)، وأراكم تصاريف الغير(مقولة2)، وآذنكم بالرحيل(مقولة3)، وقدمكم جيلا بعد جيل (مقولة4)، فما للقلوب لا تتصدع خشوعا، وما للدموع لا تجري بدل الدموع نجيعا " فالمقولات الأربعة التي ذكرها الخطاب كانت متكاملة لتؤدي إلى نتيجة مفادها تصدع القلوب

(1) استراتيجيات الخطاب / 416.

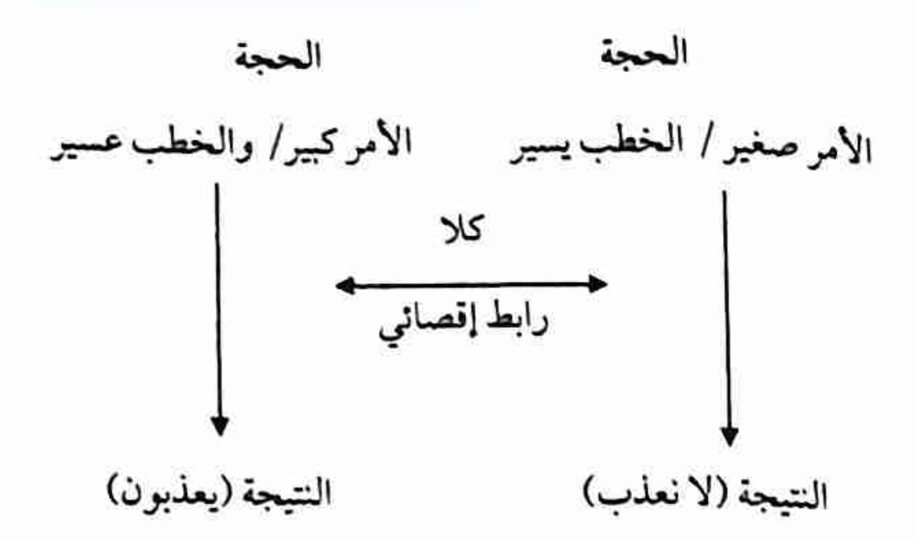
خشية، وجريان الدم بدل الدموع خوفا، لكن الذي حصل هو نتيجة غير التي كانت متوقعة، واستفيد ذلك من الرابط (ما-لا) الذي عكس النتيجة، وانخفضت توقعاتها.

(ما-لا) النتيجة (تصدع القلوب / بكاء العيون/ تُرحمون)

- قدمكم جيلا بعد جيلِ
-آذنكم بالرحيل
- أراكم تصاريف الغير
- صدقكم الموت عن الخبر

النتيجة (عدم تصدع القلوب
عدم بكاء العيون / لا تُرحمون)

ثم استعمل الخطيب رابطا حجاجيا آخر وهو (كلا) إذ عمل على الفصل بين حجتين ثم تقوية حجة على أخرى، بغية الوصول إلى النتيجة بأسرع طريقة يقول:" أ تحسبون أن الأمر صغيرٌ، أم تتوهمون أن الخطب يسير!؟. كلا لتردن الصمة الصماء،والداهية الدهياء" فربط العامل الحجاجي بين حجة الكافرين والغاوين الذين يرون أن الأمر أمر الحياة وابتلاءها يسيرا، ثم ذكر حجته بأنها داهية كبيرة وساعة عظيمة وأمر جلل عظيم، ليس كما رأوه، فقام الرابط برفض الحجة التي قبله وتقوية الحجة التي بعده، ومن ثم رفض نتيجة حجتهم بأنهم لن يعذبوا ولن يؤاخذوا على أفعالهم، وتقوية نتيجة الحجة التي بعده بأنهم سيؤاخذون على أفعالهم، وصولا إلى غاية إقناعية مفادها ردعهم وتذكيرهم بأفعالهم و بما سيؤول إليه حالهم.



وفي خطبة له يذكر فيها الموت والمعاد :" أيها الناس: من أسوأ حالا ممن استعبده هواه، أم من أكسف بالا ممن أبعده مالكه ومولاه، أم من أخسر صفقة ممن باع آخرته بدنياه، أم من أكبر حسرة ممن كانت النار منقلبه ومثواه، فما للغفلة قد شملت قلوبكم، وما للغيرة قد سترت عنكم عيوبكم، وما للطمع قد صغّر عندكم ذنوبكم...فحتام وإلام وعلام التخلف والمقام؟ أتطمعون في بقاء الأبد؟ كلا والواحد الصمد إن الموت بالرَّصدِ، لا يبقي منكم على أحد، فكأن دارت عليكم دوائره، ودهمتكم عساكره، وكشفت لكم سرائره... "[1].

استعمل الخطيب هنا مجموعة من الآليات اللغوية في السلم الحجاجي، ومنها أفعال التفضيل (أسوأ - أكسف - أخسر - أكبر حسرة) ويكمن دور أفعل التفضيل الحجاجي في أنه يتضمن صيغا تمكن المرسل من إيجاد العلاقة بين أطراف ليس بينها أية علاقة بطبعها، كما أنه يمكنه من ترتيب العناصر والأشياء ترتيبا معينا، يظهر مدى تفوق عنصر على آخر، وبدون استعماله ما كان لهذا الترتيب أن يتحقق ؛ لذلك صنفه بيرلمان ضمن حجج التعدية[2]. نقل الخطيب أذهان السامعين إلى مفاضلة عقلية بين

---

(1) ديوان خطب ابن نباتة / 146.

(2) استراتيجيات الخطاب / 529.

عناصر خارجية محكومة بوقائع ثابتة،فقسم أحوال الناس على أصناف منهم من كان حرا في معيشته لا يرى ربا غير خالقه، ولا يرى نفسه عبدا إلا له، ومنهم من كان تابعا لهواه مستعبدا لملذاته، ثم قسم الناس على أحوال أخرى فمنهم كان باله مرتاحا حينما قرَّبه مولاه وخالقه منه وجعله في الدرجات العليا، ومنهم من كان كسيفا باله مذموما حينما أبعده مولاه عنه، ثم رتب الحقائق في سلم آخر عندما جعل في حياتهم وكأنهم يعقدون صفقات تجارية، فمنهم من باع دنياه بآخرته، ومنهم من باع آخرته بدنياه، ثم قسم الناس في سلم رابع، جعل الناس فيه على أحوال منهم من تكون الجنة مثواه، فيعيش هانئا مرتاحا باله، متنعما،حامدا وشاكرا، ومنهم من تكون النار مثواه، فلا توجد أكبر من حسرته، فهنا فاضل من خلال أفعل التفضيل، بين أحوال الناس آنفة الذكر، وجعل أفضلها من كان عبدا لله وترك هواه، ومن قربه مولاه منه درجات، ومن ربحت صفقته بأن باع دنياه بآخرته، ومن كانت الجنة مثواه. كل تلك السلالم الحجاجية كانت تصب في خانة إقناعية واحدة وهي حث المتلقي وتوجيهه على أن يكون من صنف الأقسام المفضلة والابتعاد عن الأقسام المفضلة عليها في السلم الحجاجي.

ثم أورد الخطيب أفعالا كلامية كانت وظيفتها الإقناعية في إنجاز الاستبطاء، ومن ثم إنجاز التهديد " فحتام وإلام وعلام التخلف والمقام؟ " ثم أورد أفعالا كلامية أخرى عن طريق الاستفهام الذي أعطى معنى مستلزما يراد به النفي في قوله:" أتطمعون في بقاء الأبد؟" فقد خرج الاستفهام هنا إلى معنى مستلزم وهو النفي أي نفي بقائهم إلى الأبد وبذلك يدحض حججهم بالتخلف عن ركب الطاعة الإلهية. ثم يبكت حججهم بالرابط الحجاجي الذي نفى ما قبله وأثبت ما بعده بقوله :" كلا والواحد الصمد إن الموت بالرصد، لا يبقي منكم على أحد، فكأن دارت عليكم دوائره، ودهمتكم عساكره، وكشفت لكم سرائره" وهنا فعل كلام من صنف أفعال الوعد (Les promissifs) التي تفرض على المتكلم التزاما معينا بكلامه، وهنا

المتكلم يملك سلطة استقاها ووفر المقبولية لها الاقتضاء المشترك بينه وبين المتلقي، فحقيقة الموت ظاهرة للأعيان ومتفق عليها من لدن طرفي الخطاب، فلا يحتاج الخطيب إلا إلى التذكير بها واستعمالها بوصفها سلطة قولية، تساعده في عملية الإقناع، وصولا إلى غاية الحدث الإقناعي وهو الوعظ بما له فائدة على المتلقي.

وفي خطبة له في الموت أيضا يقول :" أيها الناس : حاكموا نفوسكم الظالمة إليها، وتحملوا بها في خلاصها عليها، وذكروا أهوال ما بين يديها،وأعلموا أن الموت معصوب برؤوسكم ومنشب مخالبه في نفوسكم....

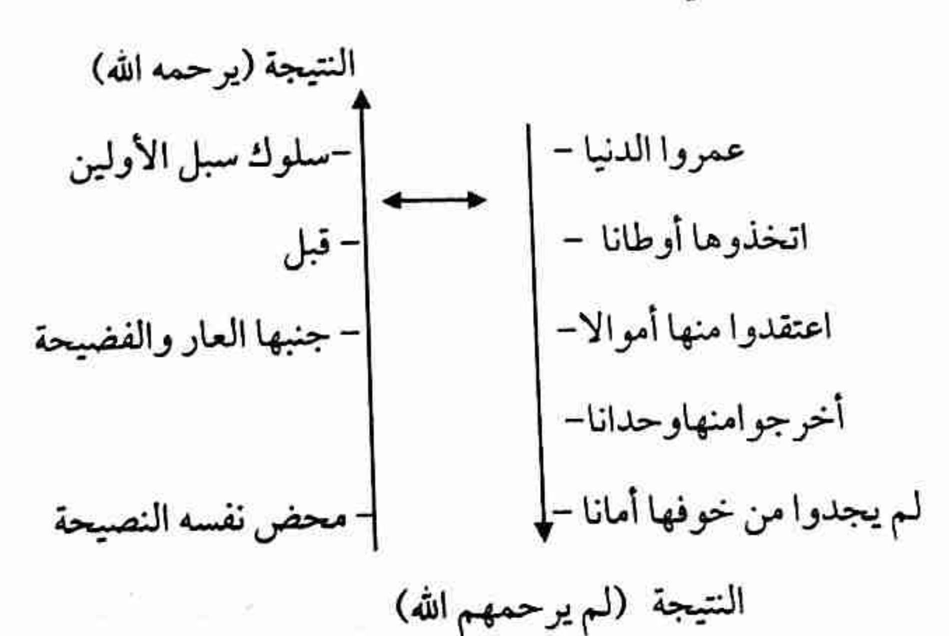
فرحم الله امرأ محض نفسه النصيحة، وجنبها العار والفضيحة، قبل سلوك سبل الأولين،والحصول في جرائد الراحلين، الذين عمروا الدنيا زمانا، واتخذوها أوطانا، واعتقدوا منها أموالا وأعوانا،فأخرجوا منها وحدانا، وزودوا من متاعها أكفانا، وبدلوا بعزها هوانا، ولم يجدوا من خوفها أمانا، أسكنوا بطون الأرض بعد ظهورها، وعُوِّضوا قبورها من قصورها، فهم في مضاجع الهلكات راقدون، وفي بلاقع الفلوات خامدون... "[1].

ابتدأ الخطيب خطابه بمجموعة من الأفعال الكلامية التي اكتسبت قوة إنجازية من معانيها المستلزمة التي ثوت خلفها فقوله: حاكموا نفوسكم الظالمة إليها، وتحملوا بها في خلاصها عليها، أفعال كلامية قوتها الإنجازية في إفادة التهديد والوعيد بقرينة (الظالمة) ثم استعمل خطابا تلميحيا آخر بقوله :" وأعلموا أن الموت معصوب برؤوسكم ومنشب مخالبه في نفوسكم " فالخطاب خرج عن المعنى الحقيقي نتيجة مخالفته لمبادئ الحوار المعروفة،وخصوصا مبدأ المناسبة والكيف، فالموت ليس من الوحوش، ومن ثم ليس لديه مخالب، وعندما تعذر علينا المعنى الحرفي رحنا نتلمس معانيا استلزامية نستفيدها من مقام الخطاب، فالمقام مقام تهديد

(1) ديوان خطب ابن نباتة / 156.

وتهويل ووعيد، وتحذير من النتيجة الحتمية التي يصل إليها الإنسان عندما يهمل مراجعة النفس، وبما أنه قد ركز في ذهن المتلقي بأن من يعص الله سيكون عقابه أليما، وكذلك فإن الوحش عندما يفترس الأشياء وينشب مخالبه فيها فإن ذلك من أقسى الآلام التي يتحملها المفترَس، إذا فقوله كناية عن عقاب العاصي بعد الموت.

ثم استعمل الخطيب سلالم حجاجية في قوله :" فرحم الله امرأ محض نفسه النصيحة، وجنبها العار والفضيحة، قبل سلوك سبل الأولين،والحصول في جرائد الراحلين، الذين عمروا الدنيا زمانا، واتخذوها أوطانا، واعتقدوا منها أموالا وأعوانا،فأخرجوا منها وحدانا، وزودوا من متاعها أكفانا، وبدلوا بعزها هوانا، ولم يجدوا من خوفها أمانا، أسكنوا بطون الأرض بعد ظهورها، وعُوِّضوا قبورها من قصورها، فهم في مضاجع الهلكات راقدون، وفي بلاقع الفلوات خامدون " ويمكن تمثيلها بالمخطط الآتي :



نلحظ اشتغال قوانين السلم الحجاجي وخصوصا قانون الخفض في هذه السلالم، فقد صدقت الحجج بالسلم الأيسر وأدت إلى نتيجة معينة، بينما نقيض تلك الحجج في السلم الأيمن أدت إلى نتيجة مناقضة للنتيجة الأولى، وكذلك قانون

القلب فالحجج في السلم الأيسر أقوى من الحجج في السلم الأيمن ؛ لذلك كانت نتيجتها موجبة بينما نتيجة الأخرى سالبة.

وفي خطبة له في تصرف الزمان والمعاد :" أيها الناس : أسيموا القلوب في رياض الحكم، وأديموا النحيب في ابيضاض اللمم، وأطيلوا الاعتبار في انتقاض النعم، وأجيلوا الأفكار في انقراض الأمم، الذين كانوا قبلكم في الأرض قانطين وعلى مهاد الخفض مستوطنين، وبعهود الأيام واثقين، وإلى غايات الأماني سابقين، ممن تبوأ عرعرة دهر أصبحتم بحضيضه، وتملأ صفو زمان جار عليكم بقروضه حتى إذا استحكمت فيه طماعية التخليد، واستولت عليه رفاهية التمهيد... وسارت بهم الدنيا مسير التقريب والخبب، وعموا عن مناصب إشراك جدها في مراعي اللعب... رغا في وسط ديارهم سقب العطب، وأعدى الهلاك إعداء الجري وأوقعت بهم المنون إيقاع الغضب... فأضحوا رهين أجداث موصدة وودائع قبور ملحدة...أ تراهم رضوا بدار الغربة دارا، أم آثروا قرار الوحشة قرارا... ولكن صال عليهم القرار فأطرقوا..."[1].

فقوله (أسيموا، أديموا، أطيلوا، أجيلوا) أفعال كلامية من قبيل أفعال العرض: (Les expositifs) وتتضمن الأفعال التي تترجم طريقة ما لعرض الأشياء التي نتحدث عنها فأفعال الاستفهام أفادت قوة إنجازية تكمن في عرض النصح والإرشاد، وتبيين الحقائق والدعوة إلى التفكر فيها، وقوتها التأثيرية في إقناع المتلقي بفكرة المرسل عسى أن تؤثر فيه، فيتعظ مما سيق من الإرشادات والمواعظ.فالأوامر تتجلى هنا في محاولة لدفع المتلقي للقيام بفعل معين، ومعلوم أن المتكلم لا يصدر أمرا إلى من هو أمامه إلا إذا كان راغبا فعلا في أن ينفذه،ومعلوم أيضا أنه لا يمكن أن يصدر أمرا إلى مخاطبه إلا إذا كان قادرا على ممارسة سلطته ونفوذه عليه[2]، وهذا ما

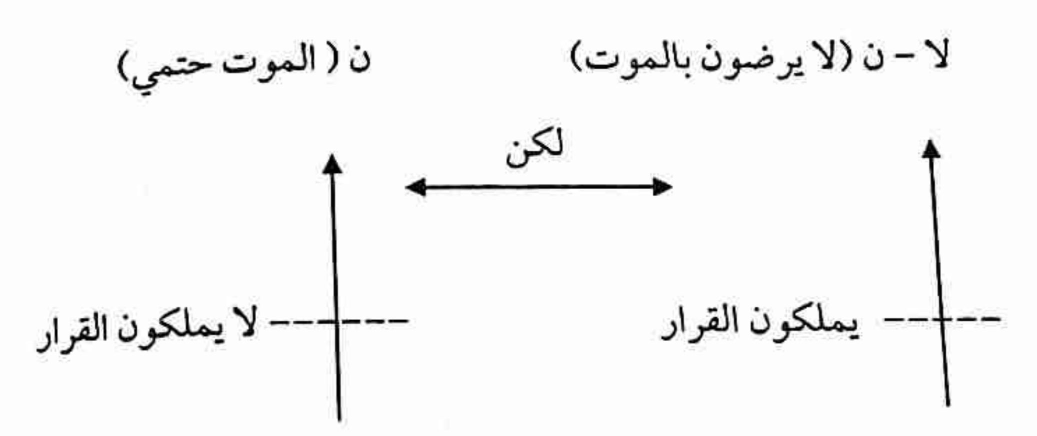
---

(1) ديوان خطب ابن نباتة / 191-192.

(2) ينظر اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي / 123.

نلحظه في سلطة الخطيب، وهي إرادة النصح والإرشاد وتوجيه الخطاب وجهة نفعية، بحيث أن الخطاب يتمحور في منفعة المتلقي، فمن هذا الدور اكتسب الخطيب سلطته و وجه خطابه وجهة الإقناع المنشودة.

ثم استعمل رابطا إقصائيا آخر وهو (لكن) التي تفيد الاستدراك. وهو تعقيب الكلام بنفي يتوهم ثبوته أو إثبات ما يتوهم نفيه، وهذا يستلزم أن يسبقها كلام له صلة بمعموليها، وأن يكون ما بعدها مخالفا لما قبلها في المعنى ومغايرا له.فيوضح هذا الرابط مفهوما جديدا وهو التناقض الحجاجي، ويمكن لنا رسم مخطط للسلم السابق:



تقول (ديبورا شيفرن) " (لكن) من أدوات تنسيق الخطاب، إلا أن لها وظيفة تداولية مختلفة، وهي أن تجعل للوحدة التي تليها فعلا مضادا ؛ ولأن هذا الدور مؤسس على معناها المضاد، فإن مدى استعمالها الذهني أضيق من مدى الواو... إذ لا تنسق لكن بين الوحدات الوظيفية إلا إذا كان هناك بعضا من العلاقات المتضادة في محتواها الذهني والتفاعلي[1].

وفي خطبة له يذكر فيها الزمان والمعاد :" أيها الناس : إن الدنيا محال يقتضيه زوال، يقتفيه مآل يحتذيه وبال، أوقاتها سهام أنتم أغراضها، وغاياتها حمام مفعمة لكم

(1) آليات الحجاج وأدواته، عبد الهادي الشهري، 1/ 104.

حياضها، وعداتها بروق مخلف إيماضها، وكراتها دفوق متلف مخاضها، فما بقاء من تقرضه الأيام قرضا وترضه الأسقام رضا رضا وتنقضه الآفات نقضا نقضا، وتركض به الساعات ركضا ركضا، حتى يلحق الخالف بالسالف والتالد بالطارف والجاهل بالعارف... ويرث الأرض وارثها، ويبعث الخليقة باعثها، بصيحة تنشر الرفات وتحشر الأموات، وتجمع فرق الشتات... وتسمع أهل الأرض والسماوات، وضاقت الأنفاس، ونطقت الحواس، وارتجت الأرض بما عليها، ونزل الملائكة إليها... واقتص من الظالم للمظلوم،وبرزت جهنم لميقات يوم معلوم... فبادروا - عباد الله - فكاك رهونكم قبل أن تغلق،وإدراك نفوسكم قبل أن تزهق، وشمروا للعمل قبل أن يقطعكم الفوت، فما بين أحدكم وبين معاينة هذا الأمر العظيم إلا الموت"[1].

بدأ الخطاب بفعل كلام إثباتي متصدر بأسلوب التوكيد، وهو من الاستراتيجيات المهمة التي يستعملها المرسل، ولكن يجب أن يعتمد في خطابه على المشتركات المعرفية بينه وبين المتلقي، وهنا يتجلى قانون الاقتضاء التخاطبي، فالخطيب عندما يتعامل مع معلومات مختصرة يعتمد فيها لا على المنطوق فحسب بل على المفهوم، وعندما ذكر بهذا الخبر في أن الدنيا محال اعتمد على معلومات المتلقي في بداية نشأة الخليقة، وكذا الحقائق الإسلامية المشتركة في نهاية الحياة الدنيا وما يتبعها من وبال على بعض الناس ونعيم على آخرين. ثم استعمل أفعال كلام من مثل قوله: " أوقاتها سهام أنتم أغراضها، وغاياتها حمام مفعمة لكم حياضها، وعداتها بروق مخلف إيماضها، وكراتها دفوق متلف مخاضها " وهي أفعال كلام تقريرية وقوتها الإنجازية في تحذير المتلقي من الغرور بالحياة الدنيا، فما أوقاتها الجميلة التي يعيشها إلا سهام الشياطين التي يرمون بها الناس ليزلوهم عن جادة الصواب، وغاياتها

(1) ديوان خطب ابن نباتة / 173-174.

التي نسير بها ليست إلا أشكال الموت وألوانه التي أعدت لنا، ووعودها التي وعدتنا بها وتلك الأماني التي تمنيناها ليس إلا بروقا لا تخلف وراءها إلا الإيماض، فهي أماني زائلة، وأعمالنا التي نفتخر بها تشبه الناقة الدفوق السريعة التي يتلف مخاضها من سرعتها.

واستعمل الخطيب مجموعة من المعاني المستلزمة في الملفوظات التقريرية السابقة، ولاسيما في (أوقاتها سهام – غاياتها حمام – عداتها بروق – كراتها دفوق) فقد خرجت الألفاظ عن المعاني الظاهرية، وتعذر تفسير الألفاظ حرفيا، فرحنا نتلمس معانيا مستلزمة نستفيدها من سياق الخطاب فالمقام شرط تداولي يعنى بضرورة موافقة أفعال القول لمقتضى الحال والموقف الخاص به ؛ أي التّرابط البرهاني بين بنية النّص وعناصر الموقف الاتصالي، التي تعدّ الأفعال الكلامية بوصفها أحداثا – وفق مفهوم الحدث – و في حال إصابتها وقبولها وكفايتها، وفي تساوقها مع مقاصد المتكلمين، تعدّ فاعلة في تغيير معارف السّامع ؛ أي أن يعرف أننا نتحدث وننطق هذا النّص، ونعّبر من خلال ذلك عن معنى معيّن، و نحيل إلى شيء ما[1] فالسياق سياق تحذير وتذكير وتهويل، بحال الدنيا، ونصح وإرشاد للمتلقي بأن يجب عليه الحذر منها، وبما أن الأوقات ليست مما لها سهام، فإنها تشبه القوس التي يكون الإنسان غايتها إذا رمته؛ لذا يجب عليه الحذر منها كما يجب عليه الحذر من القوس، وبما أن غاياتنا يكون الموت نهايتها فإن المعنى الكنائي هو أننا نسير باتجاه الموت في حيواتنا، وبما أن عدات الدنيا زائلة كلمح البصر فهي تشبه ضوء البرق الذي سرعان ما يزول، فالمعنى الاستعاري أن عدات الدنيا زائلة زوال ضوء البرق...ألخ. فاستعمل الخطيب حجاجية الاستعارة لما تمثله بوصفها معقلا بارزا من معاقل الإبداع ؛ نظرا لما تتمتع به من فاعلية معرفية جمالية ؛ لذلك فهي تشغل المتلقي

---

(1) ينظر علم النص، فان دايك، ترجمة سعيد بحيري / 130.

الذي يعمل فكره ومشاعره لفهمها وتذوقها فالاستعارة في النص الأدبي تتطلب من المتلقي جهدا مميزا لتأويلها واستيعابها ونتيجة لهذا الجهد المبذول من قبله فهي تؤثر فيه فكرا وعاطفة بقدر معين يتراوح بين مجرد الإيصال والإبلاغ إلى أعلى درجات الجمالية والأدبية وذلك بحسب فاعلية هذه الاستعارة وقدرتها على التأثير في المتلقي[1]

ثم استعمل مجموعة من الأفعال الكلامية في قوله: فبادروا - عباد الله – فكاك رهونكم قبل أن تغلق،وإدراك نفوسكم قبل أن تزهق، وشمروا للعمل قبل أن يقطعكم الفوت، فما بين أحدكم وبين معاينة هذا الأمر العظيم إلا الموت " وهي أفعال كلامية وقوتها الإنجازية في إفادة التحذير والوعيد. فيجب على الناس أن يبادروا ويفكوا ما رهنوا به لخالقهم، وأن يدركوا أنفسهم بالعمل الصالح قبل أن تزهق ويفوت عليهم الثواب. كل تلك الآليات الإقناعية التداولية تضافرت في حث المتلقي على الاعتبار وتحذيره من خطورة ما هو مقبل عليه.

وفي خطبة طويلة له يحث فيها على الجهاد :" أيها الناس : اقطعوا بتقوى الله أودية الأعمار، وارفعوا في جهاد عدو الله ألوية الأبرار، واصدعوا بكتاب الله قلوب المنافقين... وبادروا غفلات الزمان بانتهاز فرصه، فإن الصحة يعتريها المرض،والأطهار تنوبها الحيض... فأخمدوا هنالك بصواعق العزمات رهجة، وأبطلوا بصوادق الحملات حججه...وتضع الحرب بعد حربهم أوزارها، فإن لقاحها مؤذن بتاجها، وانفتاحها تابع لارتجاجها... وما تلبث إلا ريثما يضربها مخاض الصبر ويعلو وجوه من صدقها ابيضاض النصر حتى قد نتجت للمدبرين نتيجة العار"[2].

---

(1) ينظر فاعلية الاستعارة في التركيب اللغوي للأدب أكرم علي معلا / 227.

(2) ديوان خطب ابن نباتة / 302-305.

سياق الخطبة في الحث على الجهاد ؛ لذلك يحاول الخطيب استعمال أكبر قدر ممكن من الآليات الحجاجية في سبيل حث المتلقي على فكرته، فابتدأ بأفعال كلام أمرية، قوتها الإنجازية تكمن في حث الهمم، ورفع الروح القتالية، واستعمال سلطة الخالق (الله جل) عندما يجعل عدوهم عدوا لله، وبذلك يكون قتال العدو قتالا لعدو الله، مما يضفي على المعركة الصفة الدينية والشرعية، ثم يستعمل القوة الحجاجية للعامل الحجاجي (ما...إلا) وهو عامل يحصر الخبر ويزيل الإنكار الذي في نفس المتكلم، وهو حصر بالنفي والإثبات، تحدث عنه الجرجاني قائلا :" وأما الخبرُ بالنَّفي والإثباتِ نحو ما هذا إلاَّ كذا وإنْ هو إلاّ كذا فيكونُ للأمرِ يُنْكِرهُ المخاطَب ويشكَ فيه. فإذا قلتَ : ما هو إلاّ مصيبٌ أو : ما هو إلاّ مُخطىءٌ قلتَه لمن يدفَعُ أن يكونَ الأمْرُ على ما قلتَه. وإذا رأيتَ شخصاً مِنْ بعيد فقلتَ : ما هو إلاّ زيدٌ لم تقله إلاّ وصاحبُك يتوهّم أنه ليس بزيدٍ وأنه إنسانٌ آخرُ ويجدُّ في الإنكارِ أن يكونَ زيداً. وإذا كان الأمْرُ ظاهراً كالذي مَضى لم تقلْه كذلك فلا تقولُ للرجل ترقِّقه على أخيه وتنبهه للذي يجب عليه منْ صِلَةِ الرَّحِمِ ومنْ حُسْنِ التَّحابِّ : ما هُوَ إلاّ أخوك. وكذلك لا يصلُحُ في : إنما أنتَ والدٌ ما أنتَ إلاَّ والدٌ"[1].

فدخول عوامل حجاجية من قبيل (ما...إلا) على ملفوظ معين من شأنها أن تخرجه من الإبلاغية إلى الحجاجية، فتكون موجهة للمسار الحجاجي، فهي عناصر لسانية يصدق عليها مفهوم الصرافم اللغوية، لها وظيفة الحد من غموض الملفوظات وتعدد نتائجها بتقديم النتيجة الملائمة للملفوظ، وآلية ذلك الحد التوجيه الحجاجي، وبذلك يكون هذا التوجيه بمثابة الاختزال ؛ لأنها تغير قسم الحجج المنشدة إلى الملفوظ إذ تجعل المتلقي ينصرف إلى نتيجة بعينها غير واقع في الاستلزامات اللاحنة حجاجيا، وبهذا تظهر قيمة العامل الحجاجي في التوجيه والربط الضمني

---

(1) دلائل الإعجاز / 332.

والصريح والقضاء على تعدد النتائج[1]. فقد وجه الخطيب المسار الحجاجي من خلال العوامل الحجاجية في النص السابق بأن الحرب ما تلبث أن تنتهي إلا وهي كاشفة عن صنفين من الناس، إما خاسر يجر أذيال الهزيمة والعار، أو رابح يحصد عنفوان النصر.

وفي خطبة له يذكر فيها يوم القيامة، يعتمد فيها على الاقتضاء التخاطبي، ولاسيما المفهوم من كلامه، والمشتركات بينه وبين متلقيه حين يقول :" أيها الناس : قلقلوا القلوب عن مراقد غفلاتها، واعدلوا بالنفوس عن موارد شهواتها، وذللوا جوامحها بذكر هجوم مماتها، وتخيلوا فضائها يوم تعرف بسماتها،وترقبوا داعيا من جو السماء تنشر به الرمم، وتُحشر له الأمم ونزول معه التهم، ويطول عنده الأسف والندم... حتى استقام كل عضو من موضعه، وقام كل شلوٍ من مصرعه، فنهضتم أيها الناس لميقات الكرة، وبوجوه من هبوات الثرى مغبرة،وألوان من هول ما ترى مصفرة..."[2] لم يكن الوصف الذي ساقه الخطيب وصفا لحدث دنيوي حاضر أو في زمن ماض، ولكنه وصف لأحداث مستقبليه، تحدث للناس والبشر والكائنات الحية وغير الحية بمختلف أنواعها، فهو يصف يوم القيامة، ولكنه لم يصرح بمصادره التي استقى منها معلوماته، ولم يبرز أحد من الحاضرين منكرا عليه ما يتحدث به ومشككا بمعلوماته، هذا الجو من الثقة والتأكيد الذي تحدث به الخطيب استقاه من المعلومات المشتركة بينه وبين متلقيه، ومن المخزون الديني والعقائدي(الاقتضائي) الذي يشتركان به، وما جاءت به الكتب السماوية ولاسيما القرآن الكريم والسنة النبوية عن أحداث آخر الزمان، ولو اختلف المخاطَبون لما صح خطابه، ولأنكروا عليه كلامه، فالمخاطب عنصر هام وضروري في إنشاء الحدث الكلامي

---

(1) ينظر العوامل الحجاجية في اللغة العربية / 60-62.

(2) ديوان خطب ابن نباتة / 252.

فالتواصل اليومي بين الأفراد يبرر وجود المعلومة المشتركة ، وهذا التواصل يستوجب إلى حد ما قيامه على خلفيات مشتركة بين الأطراف المتخاطبة، فمثلا لو أن زيدا قال لمحمد : إذا استمر الوضع على ما هو عليه فسأضطر إلى بيع سيارتي، فرد عليه محمد : وأنا كذلك، فمن السهل أن ندرك بأن ثمة معلومات غير منطوقة مشتركة بين المتكلمين، جعلت من الوضعية الاقتصادية والمحلية إطارا لها، ومن الطبيعي أن ثمة أحداثا ترتبت على تلك الوضعية من ارتفاع أسعار الطاقة بحيث لا يتحمل أصحاب السيارات ذلك، وربما غلاء المعيشة، وتدهور الحالة المعيشية، فالمتكلم والمخاطب يتقاسمان الشعور بالحالة نفسها وربما الخوف من تلك الأوضاع ؛ لذلك تطابق رد فعلهما حولها[1].

ولم يذكر الخطيب كم الآيات والأحاديث التي تروي حديثه وتفسره عن يوم القيامة وتعضده وتكون دافعا حجاجيا نحو الإقناع – بل إن في إخفائها حجاجية أخرى– ؛ ذلك تماشيا مع قانون مهم من قوانين الاقتضاء التخاطبي، وأقصد به قانون الاختصار، الذي يقضي أن يضمر الملقي في كلامه ما دلت عليه القرائن، مقالية كانت أو مقامية، والأهم من هذا هو أن اللسان العربي يمتاز على كثير من الألسن بكونه يميل إلى الإيجاز في العبارة، وطي المعارف المشتركة طيا، اعتمادا على قدرة المخاطب في تدارك ما اضمر من الكلام، وفي استحضار أدلته السياقية، بل في إبداعها من عنده متى اقتضت الحاجة، ومعلوم على قدر ما اضمر المتكلم يبذل المستمع الجهد في الفهم.

تنوعت أدوار الآليات التداولية الحجاجية في خطب ابن نباتة، فكان لافعال الكلام دور واضح، في توجيه الخطاب، ولاسيما الأمر والنفي والاستفهام، وكل القوى الإنجازية التي اطلعت بها، وكذلك على صعيد التاثير الذي أحدثته. وكان

---

(1) ينظر الاقتضاء وانسجام الخطاب، د. ريم الهمامي / 36.

للاقتضاء التخاطبي دور واضح في توجيه الخطاب ولاسيما في المفهوم من الأقوال الذي تساوق مع المنطوق ليوجه الخطاب نحو التأثير في المتلقي. وللاستلزام الحواري دور كبير ولاسيما في خروجات المعاني الحرفية إلى أخرى مستلزمة استخدناها من تحليل السياق القولي للخطابات المختلفة.

تعددت الروابط والعوامل الحجاجية في خطب ابن نباتة، واختلفت ؛ نظرا لما تطلع به من أدوار فعالة في انسجام الخطاب من ناحية، وفي توجيه الخطاب من ناحية أخرى وجهة قوية ومؤثرة بحيث تلغي تعدد الاحتمالات وتسوق الخطاب وتوجهه نحو وجهة منفردة وواضحة.

الخاتمة

الخاتمة

خرج البحث بحمد الله وتوفيقه إلى نتائج، أهمها :

تطور الدرس الحجاجي قديما في الثقافتين الغربية والعربية، لكنه كان واضحا في الثقافة الغربية القديمة، وممنهجا بشكل أوضح؛ نتيجة ارتباطه بعلم الكلام والجدل والخطابة والبلاغة، وعانى اضطرابا في بداية نشأته على يد السفسطائيين، الذين ربطوه بالمنفعة الذاتية، وبالجدل ولكون خطابهم مبنيا على الأغاليط الدلالية من خلال التلاعب بالمقدمات والفرضيات والحجج والنتائج، في حين اعتمد أفلاطون في مرحلة متقدمة على منهج المحاورة في سبيل دحض توجهات السفسطائيين، فاعتمد الفلسفة الحقيقية مقابل فلسفة السفسطائيين الخادعة، وجاء أرسطو بفكر ميز فيه بين الجدل والخطابة، وأعطى حرية للمناقشة المتكافئة، وأخذ الإقناع دوره في أفكاره، وفي العصر الحديث تطور الدرس الحجاجي أكثر على يد أعلام وفلاسفة ذهبوا مدارس شتى، وكان في التراث العربي ملامح مهمة للدرس الحجاجي، وكان في الدرس العربي المحدث إسهامات واضحة، ولكننا نستطيع أن ننحى منحى جديدا، نرى فيه الحجاج عبارة عن مثلث، يقع في قاعدته الحجاج الفلسفي، وضلعاه الحجاج التداولي والبلاغي، وكل من الهرم والقاعدة يطلع بأدوار حجاجية، تلعب دورا تكامليا، عبر أدوات معينة.

ينطلق الحجاج الفلسفي من التمييز بين الاستدلال التحليلي، والاستدلال الديالكتيكي، فالأول مرتبط بالصواب والمنطق، وأما الثاني فينطلق من المقدمات التي تشكل من الآراء المقبولة عموما، والقابلة للصواب، وذلك بهدف استنباط أطروحات أخرى أو قبولها، وكذلك فإن للخطاب الحجاجي تقنياته القائمة في جوهرها على زوج الفصل والوصل الحجاجيين لا النحويين، لكن الخطاب قبل أن يستوي كيانا مشكلا من تقنيات حجاجية يواجه بها المتكلم المخاطب لإيقاع

التصديق ، منطلقات حجاجية مدارها على مقدمات تؤخذ على أنها مسلمات ، يقبل بها الجمهور ، واختيار هذه المقدمات وطريقة صوغها وترتيبها له في حد ذاته قيمة حجاجية ، ورأينا كيف أن ابن نباتة قد استعمل مجموعة كبيرة من المقدمات الحجاجية التي مهدت الطريق أمامه لإطلاق حججه ، التي بدورها تنوعت بين حجج قائمة على الاتصال وأخرى على الانفصال ومنها شبه منطقية وأخرى مبنية على الواقع .فاستعمل حجية التتابع والسلطة والتبادل والتمثيل والنموذج وغيرها كثيرا ، كل تلك الحجج لعبت دورا في إظهار خطابه بصورة متناسقة وموجهة نحو هدف إقناعي معين .

تؤدي الأساليب البلاغية دورا إقناعيا استدلاليا ، ويتبين لنا من ذلك أن معظم الأساليب البلاغية تمتلك خاصية التحول لأداء أغراض إقناعية تواصلية ، ولإنجاز مقاصد حجاجية ولإفادة أبعاد تداولية . فقد تعلو الاستعارة استعمال ألفاظ حقيقية ؛ ذلك أن المخاطِب لا يلجأ إلى استعمالها إلا لوثوقه بأنها أبلغ من الحقيقة حجاجيا وفي التراث البلاغي العربي كان للتمثيل الصبغة الحجاجية المهمة والأساسية ، وتتحدد في ضوئه قناعات المتلقي ، ويمارس دورا إقناعيا عاليا ، يؤثر في النفوس ويحثها على القبول بمقاصد المتكلم . و تكمن الطاقة الحجاجية للكناية في تركها للذهن مجالا لإقامة علاقات تؤدي في النهاية إلى الإقناع العقلي بالحقيقة التي يريد المتكلم إثباتها ، فيوردها المتكلم بوصفها وسيلة إقناعية ، تسهم في اتساع الأفق الإقناعي وحصول الإقناع ، فيورد الكناية كطرح فلسفي ، ومتى ما اكتشفها القارئ أقر بصحة الطرح .

تنوعت أدوار الآليات التداولية الحجاجية في خطب ابن نباتة ، فكان لأفعال الكلام دور واضح ، في توجيه الخطاب ، ولاسيما الأمر والنفي والاستفهام ، وكل القوى الإنجازية التي اطلعت بها ، وكذلك على صعيد التاثير الذي احدثته . وكان للاقتضاء التخاطبي دور واضح في توجيه الخطاب ولاسيما في المفهوم من الأقوال

الذي تساوق مع المنطوق ليوجه الخطاب نحو التأثير في المتلقي . وللاستلزام الحواري دور كبير ولاسيما في خروجات المعاني الحرفية إلى أخرى مستلزمة استفدناها من تحليل السياق القولي للخطابات المختلفة .

تعددت الروابط والعوامل الحجاجية في خطب ابن نباتة ، واختلفت ؛ نظرا لما تطلع به من أدوار فعالة في انسجام الخطاب من ناحية ، وفي توجيه الخطاب من ناحية أخرى وجهة قوية ومؤثرة بحيث تلغي تعدد الاحتمالات وتسوق الخطاب نحو وجهة منفردة وواضحة .

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنام محمد (ﷺ) وعلى آله لطيبين الطاهرين .

الحِجَاج وتوجيه الخطاب

مفهومُهُ ومجالاتُه وتطبيقاتٌ في خطب ابن نباتة

أهم روافد البحث

أهم روافد البحث

❖ القرآن الكريم.

❖ الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي، نادية النجار، مؤسسة حورس، الإسكندرية، ط1، 2013.

❖ الإتقان في علوم القرآن،عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت 911هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،الهيئة المصرية العامة للكتاب 1974 م

❖ الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي، عالم الفكر مج 40، العدد 2.

❖ استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتب الجديدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.

❖ أسرار البلاغة الجرجاني، تحقيق محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ط1 1988م.

❖ الاقتضاء في التداول اللساني، عادل فاخوري، مجلة عالم الفكر مج 20، العدد الثالث، 1989.

❖ الاقتضاء وانسجام الخطاب، د. ريم الهمامي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان ط1 2013م.

❖ أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، مجموعة باحثين، تونس د. ت، د. ط.

❖ البرهان في وجوه البيان، إسحاق ابن وهب، تحقيق د. حفني محمد شرف، مكتبة الشباب القاهرة 1969م.

❖ البعد التداولي والحجاجي في الآيات الدالة على الغرور في القرآن الكريم، د. باسم خيري خضير مجلة الكلية الإسلامية الجامعة، العدد31،2015م.

❖ بلاغة الإقناع في المناظرة، د. عبد اللطيف عادل، منشورات ضفاف / الاختلاف، بيروت لبنان ط1، 2013 م.

❖ بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، مكتبة لبنان ناشرون، ط1 1996م.

❖ البيان والتبيين – أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت255هـ) – تحقيق عبد السلام هارون – ط7 – مكتبة الخانجي – القاهرة – 1998م.

❖ تأريخ ابن خلدون – عبد الرحمن بن خلدون (ت808هـ) – تحقيق خليل شحاذة – دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت – 2000م– د.ط.

❖ تاريخ نظريات الحجاج فيليب بروتون، جيل جوتيه، ترجمة محمد صالح الغامدي، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، الرياض، ط1، 2011م.

❖ تجديد المنهج في تقويم التراث، طه عبد الرحمن المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ط2.

❖ التحاجج، طبيعته ومجالاته ووظائفه، تنسيق حمو النقاري، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ط1 2006م.

❖ تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر بيان إعجاز القرآن،أبو الإصبع المصري(ت654هـ)تحقيق د. حفني محمد شرف .

❖ التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : 1393هـ)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان ط1 2000م.

❖ التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، صلاح إسماعيل عبد الحق، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت لبنان ط1 1993م.

❖ التداولية من أوستين إلى غوفمان، فليب بلانشيه، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية ط1، 2007م.

❖ التداولية والحجاج (مدخل ونصوص) صابر حباشة، صفحات للدراسات والنشر، دمشق.

❖ التفكير البلاغي عند العرب، حمادي صمود، دار الكتاب الجديد، بنغازي ليبيا ط3، 2010م.

❖ التفكير فلسفيا،كريس هورنر، وإمريس ويستاكون، ترجمة د. ليلى الطويل، منشورا الهيئة العامة السورية للكتاب 20011م.

❖ الحجاج في البلاغة المعاصرة، د. محمد سالم محمد الأمين الطلبة، دار الكتاب الجديد، بنغازي، ليبيا، ط1، 2008م.

❖ الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه، د. سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط2 2011م.

❖ الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، دار الفارابي، بيروت – لبنان، ط2، 2007م.

❖ الحجاج مفهومه ومجالاته، د. حافظ إسماعيل عليوي،عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2010 م.

❖ الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، د. علي الشبعان، دار الكتاب الجديد، بنغازي، ليبيا، ط1، 2010م.

❖ الحجاج والمواطنة، د. توبي لحسن، رؤية للنشر والتوزيع القاهرة ط1 2014م.

❖ الحجاجيات اللسانية عند انسكومبر وديكرو، الرشيد الراضي، عالم الفكر العدد1 مج 34 2005م.

❖ حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي (ع)، د. كمال الزماني عالم الكتب الحديث، إربد – الأردن 2012 م.

❖ خزانة الأدب وغاية الأرب، تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي(ت837هـ)، تحقيق : عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال – بيروت، ط1 1987م

❖ الخطابة، أرسطو، ترجمة إبراهيم سلامة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، 1953م.

❖ دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) – تحقيق د0 محمد التنجي – ط1 – دار الكتاب العربي – بيروت – 1995م0

❖ ديوان خطب ابن نباتة (عبد الرحيم محمد بن نباتة ت374هـ) تحقيق ياسر محمد خير، الوعي الإسلامي، الكويت ط1 2012م.

❖ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني،تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجبل ط5 1981م.

عندما نتواصل نغير عبد السلام عشير (مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج)، إفريقيا الشرق، المغرب، 2006.

❖ العوامل الحجاجية في اللغة العربية، د. عز الدين الناجح، مكتبة علاء الدين، صفاقس، تونس ط1 2011م.

❖ في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،ط2، 2000م.

❖ في بلاغة الخطاب الإقناعي، د. محمد العمري، أفريقيا الشرق المغرب، ط2، 2002م.

❖ في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، د. عبد الله صولة، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس ط1 2011م.

❖ القاموس الموسوعي في التداولية، جاك موشلار – آن ريبول، مجموعة من المترجمين، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس 2010م.

❖ كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) – أبو هلال العسكري – تحقيق محمد أمين الخانجي – مطبعة محمود بك – الأستانة – 1320هـ 0

❖ لسان العرب–أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري (711هـ)–دار صادر بيروت.

❖ اللسان والميزان (التكوثر العقلي) د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998م.

❖ لغة الخطاب السياسي (دراسة لغوية تطبيقية في ضوء نظرية الاتصال) د. محمود عكاشة، دار النشر للجامعات، ط1، القاهرة 2005 م.

❖ اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، العمدة في الطبع، الدار البيضاء ط1 2006م.

❖ اللغة والخطاب، عمر أوكان، رؤية للنشر والتوزيع القاهرة، ط1 2010م.

❖ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين الموصلي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية بيروت 1995م.

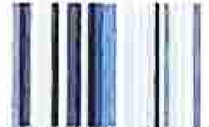
❖ مدخل إلى الحجاج، أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان د. محمد الولي، عالم الفكر، العدد 2 / مج 40 2011م.

❖ مراتب الحجاج وقياس التمثيل، طه عبد الرحمن، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، المغرب، العدد التاسع، 1989 م.

❖ معجم تحليل الخطاب، بارتريك شارودو،دومنيك منغنو، ترجمة عبد القادر المهيري، حمادي صمود، دار سيناتر تونس.

❖ مفتاح العلوم السكاكي(ت626هـ)، تحقيق نعيم زرزور،دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط2 1987م.

❖ النظرية البرجماتية اللسانية، د. محمود عكاشة، مكتبة الآداب القاهرة.





دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع
المملكة الأردنية الهاشمية - عمان - شارع الملك حسين
مجمع الفحيص التجاري - هاتف +962 6 4611169
تلفاكس +962 6 4612190 - ص.ب 922762 عمان 11192 الأردن
safa@darsafa.info - safa@darsafa1.net - safa@darsafa.net
دار صفاء للنشر والتوزيع
دار صفاء للنشر